الدكتور علي حسني الخربوطلي

تاريخ الكعبة

دار الجيل
بيروت



تاريخ الكعبة



الدكتور علي حسني الخربوطلي

تاريخ الكعبة

دار الجيل
بيروت

الطبعة الثالثة

١٤١١هـ - ١٩٩١م

الفهرست

***

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه هي دراسة علمية منهجية جديدة عن الكعبة. وهي تبرز تاريخها ودورها في الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية في العالمين العربي والاسلامي. وان كانت الكعبة هي المكان المقدس عند ملايين المسلمين ، واذ هي قبلتهم في الصلاة ، ومقصدهم في الحج ، الا أن تاريخها يرجع الى عهد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . وقامت الكعبة بدور كبير بارز في تاريخ العصور السابقة لظهور الاسلام .

قام ابراهيم واسماعيل ، عليهما السلام ، ببناء الكعبة ، بأمر من الله عز وجل ، وأذن ابراهيم بالحج الى الكعبة . ونزل جبريل عليه السلام من السماء بالحجر الأسود ، كما كان قد فجّر بئر زمزم تكريماً لاسماعيل وأمه هاجر . وكانت الكعبة هي العامل الرئيسي لقيام مكة ، المدينة المقدسة . فقد كان انشاء مكة على أساس ديني ، وليس على أساس عمراني . اذ قامت في مكان محدود المساحة تحيطه الجبال من كل ناحية ، ويفتقر الى موارد المياه ووسائل الحياة .

وأصبحت الكعبة بعد بنائها مركز دين التوحيد الذي دعا اليه ابراهيم وتولاه اسماعيل وأبناؤه وأحفاده . وتطورت مكة وأصبحت مدينة ذات أهمية دينية وسياسية ، ومركزاً لحياة اقتصادية واسعة النطاق ، وشهدت الكعبة حولها

أسواقاً كثيرة ساهمت في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزيرة العربية قبل الاسلام .

وتولت قبيلة جرهم ثم قبيلة خزاعة الاشراف على الكعبة ، مما أتاح لها الفرصة لتولي الزعامة السياسية والاقتصادية في مكة . حتى ظهرت قبيلة قريش في مكة ، فدخلت الكعبة ومكة في دور جديد متميز . واكتسبت قريش أمجادها السياسية والحضارية من اشرافها على الكعبة ، وتوليها شؤون الحج .

وفي عهد سيادات خزاعة ، كانت النكسة ، فاندثرت معالم دين التوحيد ، وبدأت الوثنية ، وأصبحت الكعبة داراً للاصنام والاوثان . وبلغت الوثنية ذروتها في العصر القرشي ، ولكن كثيراً من المستنيرين من العرب أبدوا ألمهم من هذه النكسة الدينية ، ودعوا العرب الى العودة الى دين ابراهيم الحنيف ، فكانت الدعوة الحنيفية ، وكان محمد عليه الصلاة والسلام في مقدمة هؤلاء الحنفاء الذين دعوا الى احياء دين التوحيد ، والابتعاد عن رذائل الجاهلية .

وفي عهد عبد المطلب ، جد الرسول عليه الصلاة والسلام ، تعرضت الكعبة لعدوان غادر ، فقد قدم جيش حبشي كثيف تتقدمه الافيال ، لغزو مكة وهدم الكعبة ، وتحويل الحجاج العرب الى الكنيسة الفخمة التي بناها القائد الحبشي أبرهة الاشرم في مدينة صنعاء . وتدخلت العناية الالهية لحماية بيت الله الحرام ، فاخفقت حملة الفيل ، وظلت الكعبة قائمة لتشهد بعد اربعين عاما ظهور الاسلام .

كان مولد الرسول عليه الصلاة والسلام في عام الفيل ، وشهدت الكعبة بشرى مولد الهدى ، فقد قدم على عبد المطلب ، رئيس قريش وزعيم مكة ، عند الكعبة من يبشره بمولد حفيده ، اليتيم الخالد ، خاتم الرسل ، وسيد الانبياء محمد عليه الصلاة والسلام .

وشهدت الكعبة ظهور الاسلام ، وجهاد الرسول عليه الصلاة والسلام

دعوة العرب الى دين الحق والهداية . ثم أصبحت الكعبة قبلة المسلمين في الصلاة . وشهدت الكعبة قدوم الرسول والمسلمين معتمرين بعد صلح الحديبية سنة ٦ هـ . ثم شهدتهم عند فتح مكة سنة ٨ هـ ، حيث دالت دولة الاصنام وارتفعت رايات الاسلام . وشهدت الكعبة الرسول عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع .

وهذا الكتاب ، يدرس تاريخ الكعبة منذ انشائها في عهد ابراهيم واسماعيل ، حتى تاريخنا المعاصر . فيبدأ بذكر بعض الروايات والاساطير التي تحفل بها المصادر التاريخية القديمة عن بناء الكعبة . ثم يدرس الكتاب تاريخ بناء الكعبة بأيدي ابراهيم ويتحدث عن الحج اليها ، ثم يدرس الكتاب دور الكعبة في قيام مكة ، وتطورها وحضارتها . ويبرز تاريخ الكعبة في العصر القرشي . ويقدم الكتاب دراسة علمية جديدة فريدة لحملة الفيل التي كان لها دويها وأثرها في تاريخ الجزيرة العربية والعالم كله ، حتى ان العرب كانوا يؤرخون أحداثهم بها . ويقدم الكتاب فصولا عن تاريخ بئر زمزم ، وعن الحج الى الكعبة قبل الاسلام ، وعن الدعوة الحنيفية التي واجهت نكسة الوثنية ودعت الى تطهير الكعبة من الاصنام .

وينتقل الكتاب الى دراسة تاريخ الكعبة بعد ظهور الاسلام ، ودورها في الدعوة الاسلامية ، فقد شهدت الكعبة تتويج انتصارات الرسول والمسلمين بفتح مكة سنة ٨ هـ وانتهاء عهد الوثنية . ثم يدرس الكتاب مظاهر اهتمام الدول الاسلامية على مر العصور التاريخية بالكعبة وتنظيم الحج . ويبرز الكتاب المراحل المختلفة التي مرت الكعبة بها في تاريخها الطويل ، وتجديد بنائها في العصر الجاهلي وفي العصور الاسلامية . كما يخصص الكتاب فصلا عن كسوة الكعبة عبر العصور .

وبعد ، فهذه بعض ملامح الكتاب ، وقد اعتمدنا في دراستنا اساساً علــى القرآن الكريم ، وعلى كتب السنة النبوية الشريفة ، ثم على المصادر التاريخية والدينية والادبية ، كما اطلعنا على بعض المراجع الحديثة ، العربية والافرنجيـة . ونرجو أن يجد كل باحث ، وكل قارىء ، وكل مسلم في كتابنا هذا الفائدة المرجوة . والله عز وجل ولي التوفيق .

دكتور علي حسني الخربوطلي

١ ـ روايات حول الكعبة قبل ابراهيم

قام ابراهيم وابنه اسماعيل ببناء الكعبة بعد نزوحهما من فلسطين الى بلاد الحجاز بأمر من الله سبحانه وتعالى . وهو ما يؤكده القرآن الكريم ، ويجمع عليه المؤرخون . ولكن يحلو لبعض المؤرخين ان يذكروا بعض الروايات التي تدور حول تاريخ بناء الكعبة ، فيجعلون لتاريخ الكعبة اصولا وجذوراً تمتد الى ما قبل عهد ابراهيم واسماعيل ، ويصبح الخيال الواسع عنصراً بارزاً في بعض الروايات . واختلاف بعض الروايات وتناقضها ، وعدم موافقتها للكتب السماوية ، يجعلنا لا نؤمن بصحتها . ولكننا ونحن ندرس تاريخ الكعبة المعظمة لا نرى بأساً من أن نذكر بعض هذه الروايات التي حوتها كتب بعض المؤرخين الأقدمين فقد أصبحت جزءاً من تواريخهم وهي محط أنظار القراء في كل زمان وحتى يمكننا ان نناقش هذه الروايات ونحكم عليها حكماً تاريخياً منهجياً .

فهناك من المؤرخين القدماء من ينسب بناء البيت الى الملائكة قبل ان يبرأ الله عز وجل الارض ومنهم من نسب بناءها الى آدم عليه السلام الى ابنه (شيث) ولكن هذه الروايات لا تستند الى مصدر اصلي قديم وجميع الشواهد تؤكد ان وادي مكة قبل نزوح ابراهيم واسماعيل كان غير ذي زرع ، ولا يسكنه احد، لعدم توافر وسائل الحياة .

أما المؤرخون الذين ينسبون بناء البيت الى الملائكة فيذكرون ان الله عز وجل غضب على الملائكة حين قال لهم : (اني جاعل في الارض خليفة ، قالوا : اتجعل فيها من يفسد ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وغضب الله سبحانه وتعالى على الملائكة واعرض عنهم فلاذ الملائكة بالعرش ورفعوا

رءوسهم وأشاروا بالاصابع يتضرعون ويبكون اشفاقاً من هذا الغضب وطافوا بعرش الله سبعاً كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون : «لبيك اللهم لبيك ، ربنا معذرة اليك ، نستغفرك ونتوب اليك» فنظر الله عز وجل اليهم ونزلت الرحمة عليهم ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتاً هو البيت المعمور ثم قال للملائكة : طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش فكان طوافهم بهذا البيت أيسر عليهم من طوافهم بعرش الخالق .

ثم أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة كما يذكر المؤرخون ، من سكان الأرض ، أن يبنوا في الارض بيتاً على مثال البيت المعمور وأمر من في الارض ان يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

فبنته الملائكة قبل خلق آدم بألفي عام وكانوا يحجون اليه . فلما حج آدم الى هذا البيت قالت الملائكة له : « بر حجك يا آدم ، حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام » .

وروى العمري في كتابه « مسالك الابصار » (١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص انه قال : « خلق الله البيت قبل الارض بألفي سنة وكان عرشه على الماء على زبدة بيضاء فدحيت من تحته » واسند العمري هذه الرواية ايضاً الى مجاهد وقتادة والسدى .

وأسند العمري الى قتادة انه قال : « ذكر لنا ان البيت هبط مع آدم وحين اهبط معك بيتي يطاف به كما يطاف حول عرشي . فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين حتى اذا كان زمن الطوفان رفعه الله وطهره من ان تصيبه عقوبة اهل الارض ، فصار معموراً في السماء . ثم ان ابراهيم تتبع منه اثراً بعد ذلك ، فبناه على اساس قديم كان قبله » (٢) .

---

(١) مسالك الابصار في ممالك الامصار جـ ١ ص ٩٣ (طبعة دار الكتب ١٩٢٤)
(٢) مسالك الابصار جـ ١ ص ٩٣

وقال عطاء بن أبي رباح : وجه آدم الى بكة(١) حين استوحش فشكا ذلك الى الله عز وجل في دعائه . فلما انتهى الى بكة انزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة فكانت على موضع البيت الآن . فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان فرفعت تلك الياقوتة حتّى بعث الله عز وجل ابراهيم فبناه فذلك قوله تعالى : « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت » . ويسند العمري هذه الرواية الى ابي عروبة.

وروى ابو الوليد الازرقي بسنده عن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب قال : ان الله تبارك وتعالى بعث ملائكته فقال ابنوا لي بناء في الارض تمثال البيت وقدره . وأمر الله من في الارض من خلقه ان يطوفوا به كما يطوف اهل السماء بالبيت المعمور . قال : وكان هذا قبل خلق آدم عليه السلام والله أعلم(٢)

ومن الروايات التي تدور حول بناء آدم البيت ، رواية تفرد ابن لهيعة في نسبتها الى الرسول انه قال : « بعث الله جبريل الى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لي بيتاً فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتّى اذا أجابه الماء نودي من تحته : حسبك يا آدم . فلما بنيا أوحى الله تعالى اليه ان يطوف به وقيل له : انت اول الناس وهذا اول بيت . ثم تناسخت القرون حتّى رفع ابراهيم القواعد فيه » .

وينسب ابن قتيبة في كتابه « المعارف(٣) بناء الكعبة الى شيث بن آدم ، فروى « كان شيث بن آدم أجل ولد آدم وافضلهم وأشبههم به وأحبهم اليه وكان وصي أبيه وولي عهده وهو الذي ولد البشر كلهم اليه انتهى انساب الناس ، وهو الذي بنى الكعبة بالطين والحجارة وكان هناك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة » ويروي العمري(٤) : (وقيل ان آدم اول من بناها — اي الكعبة —

---

(١) أي مكة

(٢) مسالك الابصار جـ ١ ص ٩٤

(٣) المعارف ص ١٠ (المطبعة الحسينية ١٩٣٤)

(٤) مسالك الابصار جـ ١ ص ٩٤

وقيل شيث بن آدم ، وكانت قبل بنائه خيمة من ياقوتة حمراء ، يطوف بها آدم) . ولكن العمري بعد أن عدد روايات كثيرة لا يجزم اذا كان بناء الكعبة قبل ابراهيم كان على يد الملائكة او على يد آدم ، او على يد ابنه شيث .

وهناك روايات كثيرة يذكرها مؤرخون اقدمون ولا نرى بأساً من ذكر بعضها ، فيذكر المؤرخ المسعودي أن قوم عاد لما اصابهم القحط « وفدوا الى مكة يستسقون وكانوا يعظمون موضع الكعبة قبل ان يشيد بناءها ابراهيم وكان ربوة حمراء » وتتعدد الروايات عند بعض المؤرخين فيذهبون الى انه كان في مكان الكعبة معبد قديم للعماليق اندثر واختفى قبل قدوم ابراهيم الى بلاد الحجاز مما جعل هذه البلاد موضع تقديس حتّى ان المصريين القدماء سموا بلاد الحجاز « البلاد المقدسة » .

قبل الكعبة كان لبعض الانبياء بيوت فقد عرف نوح البيوت وسكنها قبل ابراهيم وكان لابراهيم بيوت في وطنه ، ولكن الكعبة كانت اول بيت وضع للناس لعبادة الله الواحد الاحد وفيه آيات بينات .

* * *

٢ – بناء ابراهيم واسماعيل الكعبة

قدوم ابراهيم واسماعيل الى الحجاز :

يرتبط تاريخ بناء الكعبة بقصة ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام ونزوحهما من فلسطين الى مكة ببلاد الحجاز ، مما يجعلنا نشير الى قصتهما في ايجاز :

نشأ ابراهيم في بلاد العراق وكان ابوه نجاراً تخصص في صناعة الاصنام التي كان يعبدها مواطنوه وكان اشتراك ابراهيم مع ابيه في تشكيل الاوثان دافعاً على العزوف عن عبادتها . حتى اذا اصبح شاباً تسلل الى المعبد وحطم الاصنام عدا كبيرها ، وسأله مواطنوه (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقـون) (١) . وعاقب الوثنيون ابراهيم على تحطيمه أوثانهم بأن ألقوه في النار ولكن الله عز وجل جعلها بردا وسلاماً . وخرج ابراهيم الى فلسطين ناجياً بنفسه وبزوجه سارة .

ثم رحل ابراهيم الى مصر حيث كان يحكمها ملوك الهكسوس (العماليق) وكان احد ملوكهم ينتزع الزوجات الجميلات بعد ان يقتل ازواجهن . واعلن ابراهيم بين الناس ان سارة اخته حتى ينجو من القتل . وانتزع الملك سارة من ابراهيم ، ولكن العناية الالهية كانت تحيط بابراهيم ، فرأى الملك في نومه ان سارة ما هي الا زوجة ابراهيم ، فندم واعادها الى زوجها ومنحه كثيراً من الهدايا ومن بينها جارية تدعى هاجر .

---

(١) سورة الانبياء آية ٦٢ و ٦٣

وكانت سارة لم تنجب لابراهيم ودفعتها عاطفة الامومة الى ان تطلب من ابراهيم الدخول بهاجر حتى تنجب له غلاماً يقر الله به عيونهما فأنجب ابراهيم من هاجر ولدا اسموه اسماعيل . وبعد فترة أنجبت سارة ابنها اسحاق .

وتساوى عطف ابراهيم على ولديه اسماعيل واسحاق ولكن سارة غضبت من أن يساوي زوجها بين ابن جاريتها وابنها ، وهي الحرة . وأصرت سارة على ان يخرج ابراهيم بهاجر واسماعيل بعيداً عنها . فخرج بهما من فلسطين الى الحجاز ، وانتهى الى الوادي الذي قامت فيه مكة فيما بعد . وكان وادياً قفراً غير ذي زرع تتخذه بعض القوافل محطة تستريح فيه خلال رحلاتها التجارية وفي ذلك يقول الطبري(١) : « واوحى الله الى ابراهيم ان يأتي مكة وليس يومئذ بمكة بيت » وترك ابراهيم ابنه اسماعيل وامه هاجر بعد ان ترك لهما اليسير من الطعام والماء وعاد الى فلسطين حيث ترك سارة واسحاق .

تحدث المؤرخ المسعودي (٢) عن المكان الذي نزل فيه ابراهيم وهاجر واسماعيل فقال : « ولما أسكن ابراهيم ولده اسماعيل مكة مع امه هاجــر واستودعهما خالقه على حسب ما أخبر الله عنه انه اسكنه بواد غير ذي زرع كان موضع البيت ربوة حمراء ، أمر ابراهيم هاجر ان تتخذ عليها عريشاً يكون لها مسكناً » .

وفرغ الطعام والماء وتعالت صيحات الطفل وخشيت هاجر على ابنها من الموت عطشاً وجوعاً وغادرت مكانها لتبحث عن الماء ، مما يدفع عنهما الهلاك واخذت تهرول بين الصفا والمروة حتى اذا أتمت السعي سبع مرات عادت الى اسماعيل فاذا به يفحص الارض بقدمه حيث نبع الماء من الارض، وظهرت بئر زمزم ، وكتب الله لاسماعيل وأمه النجاة .

---

(١) الطبري ج ١ ص ١٧٩

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٧

ويروي الطبري ان الله عز وجل انزل جبريل ففجر هذه البئر وقد بشر جبريل هاجر بعودة ابراهيم في يوم ما وبنائه الكعبة قال الطبري(١): «وقال لها الملك : لا تخافي الظمأ على اهل هذا البلد فانها عين لشرب ضيفان الله ان ابا هذا الغلام سيجيء فيبنيان لله بيتاً هذا موضعه » .

وصادف ان مرت قبيلة جرهم بهذا المكان فشاهدت طيوراً تحلق في السماء فأدركوا ان هناك ماء ، وعجبوا من ذلك فقد كانوا يمرون بالمكان فيجدونه قفراً جدباً ، وعثرت جرهم على هاجر وابنها واستأذنوا منها في الاقامة الى جانب هذه البئر فاذنت لهم وشب اسماعيل في قبيلة جرهم وتعلم منهم اللغة العربية فيقول المسعودي (٢) : « وأذنت لهم في النزول فتلقوا من كان وراءهم من اهليهم واخبروهم خبر الماء ، فنزلوا الوادي مطمئنين مستبشرين بالماء ، مما أضاء الوادي من نور النبوة وموضع البيت الحرام، فرحين « وعيل اسماعيل وتكلم اسماعيل بالعربية خلاف لغة أبيه » .

مقدمات بناء الكعبة :

مرت السنون وماتت هاجر وهي في التسعين من عمرها . واصبح اسماعيل شاباً يافعاً وتزوج احدى فتيات قبيلة جرهم وتدعى الجداء بنت سعد . وفي يوم اشتاق ابراهيم لرؤية ابنه اسماعيل فاستأذن من زوجته سارة في الرحيل ، فأذنت له . وقصد ابراهيم الى دار اسماعيل وكان حينئذ غائباً في رحلة صيد: وطرق ابراهيم الباب فخرجت له الجداء فقال لها ابراهيم : اين صاحبك ؟ قالت : ليس هاهنا ، ذهب يتصيد . فقال ابراهيم : هل عندك ضيافة ، هل عندك طعام او شراب ؟ قالت : ليس عندي ، وما عندي أحد . فقال ابراهيم : اذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له فليغير عتبة بابه . وعاد

(١) الطبري ج ١ ص ١٨١
(٢) الطبري ج ١ ص ٤٨

اسماعيل من رحلته وعلم بالقصة فطلق زوجته وتزوج من فتاة جرهمية أخرى تدعى سامة بنت مهلهل(١) .

ودفع الشوق ابراهيم الى القدوم مرة اخرى الى مكة ليرى ابنه اسماعيل واذنت له سارة بذلك واشترطت عليه الا ينزل عن جواده ، فجاء ابراهيم حتى انتهى الى باب اسماعيل فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد وهو يجيء الآن ان شاء الله فانزل يرحمك الله . قال لها : هل عندك ضيافة ؟ قالت : نعم . قال : هل عندك خبز او بر او شعير او تمر ؟ فجاءت باللبن واللحم . فدعا لهما بالبركة . فلو جاءت يومئذ بخبز او بر او تمر او شعير لكانت اكثر ارض الله براً او شعيراً او تمراً(٢) .

ويروي المسعودي (٣) رواية عن تبشير ابراهيم ببناء الكعبة فروى : «والحت الجرهمية على ابراهيم في النزول فابى ، فقدمت اليه لبناً وشرائح من لحم الصيد ، فدعا له بالبركة وجاءته بحجر كان في البيت فمال عن ركابه وجعلته تحت قدمه اليمنى ثم رجلت شعره ودهنته ، ثم حولت الحجر الى شماله فوضع رجله اليسرى عليه ايضاً ومال برأسه نحوها فرجلته ودهنته فأثرت قدماه في الحجر على ما وصفنا من ترتيب اليمين والشمال فلما رأت الجرهمية ذلك اكبرت من شاهدته وهذا الحجر هو مقام ابراهيم فقال لها ابراهيم : ارفعيه فسيكون له شأن ونبأ بعد حين . ثم قال لها : اذا جاءك اسماعيل فقولي له : ان ابراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك : احتفظ بعتبة بيتك فنعمت العتبة هي ، وسار ابراهيم راجعاً نحو الشام » .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٨

(٢) الطبري جـ ١ ص ٤٨

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٨

تطورت مكة وزاد عدد سكانها فقد علمت بطون جرهم والعماليق بحلول الماء والخصب في مكة فأقبلوا على النزول بها واصبح الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمي زعيم اهل مكة(١) .

بناء الكعبة :

قدم ابراهيم مرة أخرى الى مكة وكان اسماعيل حينئذ في الثلاثين من عمره وفي هذه المرة امر الله عز وجل ابراهيم ببناء الكعبة ، وتعاون الاب والابن على تنفيذ أمر المولى سبحانه وتعالى .

وروى المؤرخون كثيراً من الروايات حول بناء الكعبة . ومن أدق هـــذه الروايات وأوجزها ما رواه الطبري (٢) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : « جاء ابراهيم فوجد اسماعيل يصلح نبلا له من وراء زمزم . فقال ابراهيم: يا اسماعيل ان ربك قد أمرني ان ابني له بيتاً . فقال له اسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك . فقال ابراهيم : قد امرك ان تعينني عليه . قال : اذاً أفعل . فقام معه فجعل ابراهيم يبنيه واسماعيل يناوله الحجارة ويقولان : (ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم) ، فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة قام على حجر وهو مقام ابراهيم فجعل يناوله ويقولان : تقبل منا انك انت السميع العليم . فلما فرغ ابراهيم من بناء البيت الذي امره الله عز وجل ببنائه أمره الله ان يؤذن في الناس بالحج فقال له : (واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) .

ولكن الطبري روى روايات اخرى كثيرة لا تختلف عن الروايات الاولى في جوهرها ، ولكنها تزيد عليها في بعض التفاصيل . وتعددت الروايات ،

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٧
(٢) الطبري جـ ١ ص ١٨٢

واختلفت في بعض عناصرها وتفاصيلها . وتختلف الروايات حول من دل ابراهيم الى المكان الذي أقام فيه الكعبة وهل هي ريح السكينة او جبريل عليه السلام ؟ من هذه الروايات : « ان رجلا قام الى علي بن ابي طالب فقال : ألا تخبرني عن البيت ، أهو أول بيت وضع في الارض ؟ فقال : لا ولكنه اول بيت وضع في البركة مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً وان شئت انبأتك كيف بني ، ان الله عز وجل اوحى إلى ابراهيم أن ابن لي بيتاً في الارض : فضاق ابراهيم بذلك ذرعاً فأرسل عز وجل السكينة وهي ريح خجوج ولها رأسان فاتبع احدهما صاحبه حتى انتهت الى مكة فتطوت على موضع البيت كتطوي الحية وأمر ابراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة ، فبنى ابراهيم»(١).

ويروي الطبري عن ابن اسحاق ان جبريل سحب ابراهيم من الشام الى الحجاز ليدله على مكة التي ستقام فيها الكعبة وأسند هذه الرواية الى ابن اسحاق فقال : عن مجاهد وغيره من اهل العلم ، ان الله عز وجل لما بوأ لابراهيم مكان البيت ومعالم الحرم ، خرج وخرج معه جبرائيل يقـــال كان لا يمر بقرية الا قال : بهذه أمرت يا جبرائيل ؟ فيقول جبرائيل : امضه . حتى قدم به مكة وهي اذ ذاك غضاة سلم وسمر وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة . فقال ابراهيم لجبرائيل : أها هنا أمرت ان اضعهما ؟ قال : نعم » (٢)

ويروي العمري(٣) عن سعيد بن ابي عروبة عن قتادة انه قال : « ذكر لنا ان قواعد البيت من حراء وذكر لنا ان البيت من خمسة اجبل : حراء ولبنان والجودي وطورسينا وطورزيتا » كما روى العمري ايضاً عن السهيل : « ان الملائكة كانت تأتي ابراهيم عليه السلام بالحجارة » .

---

(١) الطبري جـ ١ ص ١٧٦
(٢) الطبري جـ ١ ص ١٧٨
(٣) مسالك الابصار جـ ١ ص ٩٤

الحجر الأسود :

مضى ابراهيم واسماعيل في بناء الكعبة كما امرهما الله عز وجل واوشك البناء ان ينتهي وبقي حجر واحد « فذهب الغلام يبغي شيئاً فقال ابراهيم : لا ابغ حجراً كما آمرك فانطلق الغلام يلتمس له حجراً فأتاه به ، فوجده قد ركب الحجر الاسود في مكانه فقال يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟ فقال : أتاني به من لم يتكل على بنائك ، أتاني به جبرائيل من السماء » (١) .

ويروي الطبري(٢) رواية اخرى لا تختلف في جوهرها عن الرواية السابقة ولكنها تزيد عليها في بعض التفاصيل وقد اسندها الطبري الى علي بن ابي طالب فقال : « فوضع ابراهيم الاساس ورفع البيت هو واسماعيل حتى انتهيا الى موضع الركن . فقال ابراهيم لاسماعيل : يا بني ابغ لي حجراً اجعله علماً للناس فجاءه بحجر فلم يرضه . وقال : ابغني غير هذا . فذهب اسماعيل ليلتمس له حجراً ، فجاءه فقد أتى بالركن فوضعه في موضعه فقال : يا أبت من جاءك بهذا الحجر ؟ قال : من لم يكلني اليك يا بني » .

والحجر الاسود حجر صقيل بيضي غير منتظم ولونه اسود يميل الى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ويقول احد الكتاب (٣) « هذا الحجر قد يكون من نوع النيازك بدليل وصفه انه كان يتلألأ نوراً فأضاء شرقاً وغرباً وشاماً ويمناً الى منتهى انصاب الحرم . وتلألؤه الموصوف دليل على انه كان ذا لون غير السواد ، ولكن بعض المؤرخين يعلل سواده بأنجاس الجاهلية وارجاسها . وبعض النيازك يتغير لونها بمجرد مرور الزمن عليها ومنها ما يتلألأ ويلمع . والكلمة من اصل فارسي « ينزه » وهو احد اقسام الشهب والشهاب ما يرى كأنه كوكب انقض من السماء وتكثر في شهر آب » .

---

(١) الطبري جـ ١ ص ١٧٦
(٢) الطبري جـ ١ ص ١٧٧
(٣) لطفي جمعة : ثورة الاسلام ص ٥٩

ويرى كاتب آخر (١) ان تقديس الحجر الاسود نجم من ارتباطه بشيء مقدس محترم فهذا الحجر الذي وضعه ابراهيم عليه السلام في الكعبة اما ان يكون قد وضعه تذكاراً لصدعه بأمر ربه حين امره برفع قواعد هذا البيت المعظم واما ان يكون رمزاً للعهد الذي أخذه ابراهيم على نفسه وولده بجعله هذا البيت بمثابة للناس وأمناً ، واما ان يكون قد أقامه ابراهيم عليه السلام حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم الى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجداً للطائفين والعاكفين والركع السجود . ولذا وضعه في الركن الاقرب الى الباب ليكون اول حدود هذا البيت المكرم الذي يبتدىء منه الطائفون واختار له اللون الاسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه لذلك كان الحجر الاسود محترماً من ابراهيم محترماً من ولده مقدساً عند المسلمين الى اليوم والى الغد .

وروى الامام احمد والبخاري ومسلم ان الرسول صلى الله عليه وسلم وقف عند الحجر الاسود فقال : « اني لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع » ثم قبله. ولما حج ابو بكر وقف عند الحجر وقال : اني لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا اني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك . وكذلك فعل عمر بن الخطاب عند حجه بالناس .

وصف الرحالة ابن بطوطة (٢) الحجر الاسود كما شاهده خلال رحلته الى مكة فقال : « واما الحجر الاسود فارتفاعه عن الارض ستة اشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتطاول اليه وهو ملصق في الركن الذي الى جهة الشرق ، وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد ، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن ، وفيه اربع قطع ملصقة . وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من

---

(١) المجرسي : كتاب الحج ص ٢٠٥

(٢) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٠٧ (المطبعة الاميرية ١٩٣٩)

فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فتجتلي منه العيون حسناً باهراً . ولتقبيله لذة ينعم بها الفم ويود لاثمه الا يفارق لثمه خاصة مودعة فيه وعناية ربانية به . وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : انه يمين الله في ارضه (نفعنا الله باستلامه ومصافحته وأوفد عليه كل شيق اليه) وفي القطعة الصحيحة من الحجر الاسود مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال في تلك الصحيفة البهية ونرى الناس اذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاماً على تقبيله فقلما يتمكن احد من ذلك الا بعد المزاحمة الشديدة وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم . ومن عند الحجر الاسود ابتداء الطواف وهو اول الاركان التي يلقاها الطائف اذا استلمه تقهقر عنه قليلا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى في طوافه ثم يلقى بعده الركن العراقي وهو الى جهة الشمال ثم يلقى الركن الشامي وهو الى جهة الغرب ثم يلقى الركن اليماني وهو الى جهة الجنوب ثم يعود الى الحجر الاسود وهو الى جهة الشرق » .

الكعبة بعد تمام بنائها :

اتم ابراهيم واسماعيل بناء الكعبة ووصف المؤرخ المسعودي (١) البيت الحرام بعد تمامه فقال : « .. وطوله ثلاثون ذراعاً والحجر فيه وهو سبعة أذرع وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً ، وسمكه سبعة أذرع وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً وسمكه سبعة اذرع وجعل له باباً ولم يسقف . ووضع الركبة موضعه والصق المقام بالبيت وذلك قوله عز وجل : (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل) — الآية . وأمر الله تعالى ابراهيم ان يؤذن في الناس بالحج » .

ووصف صاحب كتاب « تاريخ الكعبة المعظمة » بيت الله الحرام بعد

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٩

انتهاء ابراهيم واسماعيل من بنائه وصفا مفصلا فقال : ان ابراهيم جعل ارتفاع البيت الى اليسار تسع اذرع وطوله من الشمال الى الجنوب مما يلي الجهة الشرقية اثنتين وثلاثين ذراعاً ومن الشمال الى الجنوب مما يلي الجهة الغربية ايضا احدى وثلاثين ذراعاً ومن الشرق الى الغرب مما يلي الجهة الجنوبية اي من الحجر الاسود الى الركن اليماني عشرين ذراعاً ومن الشرق الى الغرب ايضاً مما يلي الجهة الشمالية اي من جهة حجر اسماعيل اثنتين وعشرين ذراعاً وجعل له بابين ملاصقين للارض اولهما في الجهة الشرقية مما يلي الحجر الاسود والآخر من الجهة الغربية مما يلي الركن اليماني على سمت الباب الشرقي وحفر في داخله بئراً تكون خزانة له ولم يجعل عليه سقفاً ولا وضع على بابيه ابواباً تفتح وتغلق.

ويعلق احد الكتاب (١) على حفر ابراهيم هذه البئر لتكون خزانة للكعبة فيقول وقد ظهر حرص ابراهيم في البناء وقصده الى ان يكون البيت معبدا لله فحسب حساب النذور فحفر في بطن البيت على يمين من دخله حفرة تكون خزانة للبيت يوضع فيها ما يهدي الى البيت .

خلد القرآن الكريم بناء الكعبة . ففي سورة آل عمران : (ان اول بيت وضع للناس ، للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين) .

ابراهيم يؤذن بالحج الى الكعبة :

بعد الفراغ من بناء الكعبة امر الله عز وجل ابراهيم ان يؤذن في الناس بالحج كما جاء في الآية الكريمة : (واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) وروى الطبري(٢) عن ابن عباس ان ابراهيم قال :

---

(١) لطفي جمعة : ثورة الاسلام ص ٥٩

(٢) الطبري ج ١ ص ١٨٢

يا رب وما يبلغ صوتي فقال عز وجل اذن وعلي البلاغ فنادى ابراهيم : يأيها الناس كتب عليكم الحج الى البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والأرض .

وروى الطبري (١) ايضاً ان عبد الله بن الزبير سأل عبيد بن عمير الليثي عما بلغه عن دعوة ابراهيم الناس الى الحج فقال : « بلغني انه لما رفع هو واسماعيل قواعد البيت وانتهى الى ما اراد الله من ذلك وحضر الحج استقبل اليمن فدعا الى الله والى حج بيته فأجيب ان لبيك اللهم لبيك ثم الى المغرب فدعا الى الله والى حج بيته فأجيب ان لبيك اللهم لبيك » .

وروى الطبري(٢) ايضاً ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « اتى جبرائيل ابراهيم يوم التروية فراح به الى منى فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر بمنى ثم غدا به الى عرفات فانزله الاراك او حيث ينزل الناس فصلى به الصلاتين جميعاً الظهر والعصر ثم وقف به حتى اذا كان كأعجل ما يصلي احد من الناس المغرب افاض حتى اتى به جمعاً فصلى به الصلاتين جميعاً المغرب والعشاء ثم اقام حتى اذا كان كأعجل ما يصلي احد من الناس الفجر صلى به ثم وقف حتى اذا كان كأبطأ ما يصلي احد من المسلمين الفجر افاض به الى منى فرمى الجمرة ثم ذبح وحلق ثم افاض الى البيت ثم اوحى الله عز وجل الى محمد صلى الله عليه وسلم (ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) .

وبعد بناء الكعبة عاد ابراهيم الى بلاد الشام وترك وراءه ابنه اسماعيل وقد اصبح رجلا وخليفة ابيه في امانته وملته الحنيفية . ثم كان تطور مدينة مكة وقد قامت في واد رملي شديد الضيق حتى ليبلغ اقصى اتساع منه نحو سبعمائة خطوة واما اضيق مكان فيه فلا يزيد على مائة خطوة تكتنفه جبال عارية مقفرة يتراوح ارتفاعها بين مائتي قدم وخمسمائة قدم .

---

(١) الطبري ج ١ ص ١٨٢
(٢) الطبري ج ١ ص ١٨٤

٣ ـ الكعبة بعد اسماعيل

تقديس العرب والهنود والفرس والصابئة للكعبة :

كان العرب في بداية الأمر يقدسون الكعبة باعتبارها بيت الله الحرام الذي بناه ابراهيم وابنه اسماعيل بأمر من الله عز وجل . وامتد تقديس العرب للكعبة الى تقديس مكة والمناطق المجاورة لها حتى اصبحت الاراضي الممتدة حولها الى عدة فراسخ حراماً لا يجوز فيها الاعتداء على انسان او حيوان .

روى ابن الكلبي (١) انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للكعبة وصبابة بمكة فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم بها وصبابة بالحرم وحباً له وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على ارث أبيهم اسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار » .

وكان العرب يرحلون من كل مكان في الجزيرة العربية في موسم الحج من كل عام الى مكة لتأدية فريضة الحج ولحضور الاسواق التجارية التي كانت تعقد دائماً في مواسم الحج وتشهد نشاطاً اقتصادياً وثقافياً .

بل امتد تقديس الكعبة الى بعض الأمم الاخرى كالهنود والفرس . فقد كان الهنود يعتقدون ان روح « شبوه » احد آلهتهم قد تقمصت في الحجر الاسود حين زار هو وزوجته بلاد الحجاز ويسمون مكة (مكشيشا) او موكشيشا او (موكشيشانا) اي بيت شيشا او شيشانا وهما من آلهتهم .

---

(١) ابن الكلبي : كتاب الاصنام

وكان الفرس ايضاً يقدسون الكعبة ويعتقدون ان روح (هرمز) حلت فيها ولذا كانوا يحجون الى الكعبة . ويذكر المؤرخ المسعودي ان الفرس كانت تعتقد انها من ولد ابراهيم الخليل عليه السلام وقد كانت اسلافهم تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيماً لجدهم ابراهيم ، وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك . ويذكر ياقوت الحموي(١) ان بئر زمزم سميت بهذا الاسم لأن الفرس كانت تحج اليها في الزمن الاول فزمزمت عليها والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء . وكان ساسان اذا أتى البيت طاف به وزمزم على هذه البئر ، وفي ذلك يقول الشاعر القديم :

زمزمت الفرس على زمزم   وذاك في سالفها الاقدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الاسلام بتقديسهم الكعبة وحجهم اليها فأنشد أحدهم :

وما زلنا نحج البيت قدماً   ونلقى بالاباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى   اتى البيت العتيق بأصيدينا
وطاف به وزمزم عند بئر   لاسماعيل تروي الشاربينا

وكانت الصابئة وهم عباد الكواكب من الفرس والكلدانيين يعدونها احد البيوت السبعة المعظمة . وكان اليهود يحترمون الكعبة ويعبدون الله فيها على دين ابراهيم .

الكعبة بعد اسماعيل :

كانت زوجة اسماعيل الثانية هي ابنة زعيم قبيلة جرهم مضاض بن. عمرو وقد رزق منها اثني عشر ولداً هم : نابت وقيدار وادبيل ومبسم ومشمع ودوما ودوام ومسا وحداد وثيثا ويطور ونافش(٢) ثم مات وعمره ١٣٧ سنة ودفن

---

(١) معجم البلدان ج ١ ص ١٤٩
(٢) الطبري ج ١ ص ٢٢١

في المسجد الحرام في الحجر حيال الموضع الذي كان فيه الحجر الاسود على مقربة من قبر امه هاجر(١) .

وبعد وفاة اسماعيل قام بالاشراف على الكعبة ابنه نابت ثم انفرد بالاشراف عليها بعض زعماء جرهم الذين نجحوا في التغلب على اولاد اسماعيل . تحدث ابن هشام في سيرته عما حدث لاولاد اسماعيل وجرهم بعد ازدياد عددهم فقال: « ثم نشر الله ولد اسماعيل بمكة واخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكام بمكة لا ينازعهم ولد اسماعيل في ذلك لخئولتهم وقرابتهم واعظاماً للحرية ان يكون بها بغي او قتال . فلما ضاقت مكة على ولد اسماعيل انتشروا في البلاد فلا يناوئون قوماً الا اظهرهم الله عليهم بدينهم ، فوطئوهم » .

كان اول من تولى شؤون الكعبة من جرهم ملكها الحارث بن مضاض وكان ينزل مكاناً على مشارف مكة يدعى (قيقعان) وكان كل من دخل مكة بتجارة اخذ عشرها . في حين كان ملك العماليق يدعى السميدع ابن هوبر وكان ينزل في اسفل مكة يستولي على اعشار التجارة التي تدخل الى مكة من جهته ، وثار النزاع بين الملكين ونشب القتال فترة ثم جنحوا الى السلم واتفقوا على أن يتولى العماليق الاشراف على الكعبة وظلوا يتولون ذلك حتى نجح الجرهميون في استعادة نفوذهم وظلوا يشرفون على الكعبة ثلثمائة سنة ، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الاصغر ، وزادوا في بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء ابراهيم عليه السلام (١) .

ثم طغت قبيلة جرهم وتجبرت وتهاونت في المهمة الكبرى الموكولة اليهم فاستولوا على اموال الكعبة ونذورها واساءوا الى الحجاج ، وتعالت اصوات الحجاج بالشكوى والاحتجاج ، وكانت العناية الالهية تحيط ببيت الله الحرام

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٠

فعاقب المولى عز وجل جرهماً على طغيانها وتجبرها « فبعث الله على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات ، فهلك كثير منهم » (١) .

ونجح اولاد اسماعيل في ان يجمعوا شملهم ويوحدوا صفوفهم ونجحوا في التغلب على قبيلة جرهم وأخرجوهم من مكة فلحقوا بجهينة ، فأتاهم السيل في بعض الليالي فذهب بهم ، وكان الموضع الذي يقيمون فيه يسمى « اضم » وصف امير جرهم الحارث بن مضاض الاصغر ما حل به وبقومه فأنشد (٢) :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بل نحن كنا اهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا لإسماعيل صهراً ووصلة ... ولما تدر فيها علينا الدوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فبدلنا ربي بها دار غربة ... بها الذئب يعوي والعدو المحاصر

ثم صارت ولاية الكعبة في ولد اياد بن نزار بن معد ، ولكن قامت حروب عنيفة طويلة بين مضر واياد انتهت بانتصار مضر ورحيل اياد عن مكة الى بلاد العراق (٣) .

ولاية خزاعة على الكعبة :

كانت قبيلة خزاعة تنزل تهامة حتى ثارت الحروب بين اياد ومضر ابني نزار وشعرت اياد بضعفها وقرب هزيمتها فخلعت الحجر الاسود من مكانه ودفنته في بعض المواضع . ورأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها فأعلموا مضراً انهم يعلمون المكان الذي اخفت فيه اياد الحجر الاسود وانهم يشترطون لاخبارهم بمكانه ان يعترفوا لهم بولاية امور الكعبة ونزلت مضر على رأيهم واصبح الاشراف على الكعبة منذ ذلك الحين لخزاعة(٤) .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠
(٢) المصدر السابق
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٥١
(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٦

يروي المؤرخون ان عمرو بن لحي الخزاعي هو الذي ادخل عبادة الاوثان في مكة ، فيروون انه لما ساد قومه في مكة واصبحت له الولاية على الكعبة رحل الى مدينة البلقاء بالشام ليستشفي من مرض أصابه ، فرأى اهلها يعبدون الاصنام فقال لهم : ما هذه الاوثان الذي أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه اصنام نعبدها نستنصرها فتنصرنا ونستسقي بها فنسقى . فقال : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به الى ارض العرب عند بيت الله الذي تفد اليه العرب ؛ فأعطوه صنماً يقال له هبل فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة (١) .

كان عمرو بن لحي ثمرة زواج خزاعة وجرهم ، فقد تمت مصاهرة بين القبيلتين فتزوج أمير من خزاعة بأميرة من جرهم فولد لهما عمرو بن لحي الذي اصبح اميراً لمكة واتسع نفوذه الى حد كبير ولم يبلغ هـذا النفوذ في العصر الجاهلي سوى قصي بن كلاب وعبد المطلب ، وخضعت كثير من القبائل العربية لطاعة عمرو .

وكان العرب بمكة وما حولها فقد تهاونوا في عقيدتهم الحنيفية دين التوحيد الذي دعا اليه ابراهيم واسماعيل ، واراد عمرو ان يدعم سلطته ونفوذه بأن يبتدع عقيدة جديدة تحل محل الدين القديم . وقد رأى تساهل قومه فيه بعد تقادم الزمن ومرور السنوات العديدة . وكان عمرو كثيراً ما رحل الى الدول المجاورة في الشام والعراق واطلع على احوالها وشاهد عقائدهما الوثنية ، ورأى فيها وسيلة لايجاد سند دنيوي مادي يعتمد عليه في تدعيم نفوذه السياسي .

ولذا تخلى عمرو عن الحنيفية دين ابراهيم واسماعيل واقام الاوثان عند الكعبة ونصب كبيرها هبل في بطن الكعبة وتعالت اصوات احتجاج من بعض

---

(١) اليعقوبي ج ١ ص ٢١١

العرب وخاصة عرب جرهم يحتجون على هذه البدعة الوثنية الجديدة التي ابتدعها زعيمهم فأنشد رجل من جرهم كان يتمسك بدين الحنيفية(١) :

يا عمرو لا تظلم بمكـــــة انها بلـــــد حــــرام
سائل بعـــاد اين هــــم وكذاك تختــرم الانـــام
وبنى العماليـــق الـــذ ين لهم بها كان الســـوام

ولما اسرف عمرو بن لحي في نصب الاصنام حول الكعبة وأجبر العرب على عبادتها مما هدد دين الحنيفية انشد شحنة بن خلف الجرهمي(٢) :

يا عمرو انك قد احدثت آلهة شتى بمكة حول البيت انصابـا
وكان للبيت رب واحد ابـدا فقد جعلت له في الناس اربابـــا
لتعرفن بأن الله في مهـــــل سيصطفي دونكم للبيت حجابـا

ولكن عمرو بن لحي نجح في اخماد اصوات الاحتجاج بما كان يتمتع به من سلطة سياسية وعسكرية واقتصادية واسعة واستمرت قبيلة خزاعة تلي شؤون الكعبة وتمارس الوثنية حوالي خمسة قرون(٣) .

نكسة الوثنية :

كانت دعوة ابراهيم هي الفتح الجديد في تاريخ العقيدة . فلم يبدأ ابراهيم عقيدة التوحيد ولم يبدأ عقيدة البقاء ، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبغتها حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك في عهد الكهانات والهياكل . وكان توحيد ابراهيم ايماناً باله يعلو على ملوك الارض ونجوم السماء ويتساوى عنده الخلق جميعاً .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٦
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٦
(٣) العقاد : ابو الانبياء ص ٢٤١

وقد اصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه في عصره فانقلبوا الى عبادة الاصنام وجهلوا سر الفداء وسر البقاء ، ولكن البداءة قد بدأت وسارت في طريقها ، ولولا انها بدئت لما تبين احد موضع النكسة فيها بعد ذلك(١) .

عفا الزمان على دين ابراهيم الحنيف وعلى تقديس الكعبة وبدأ عصر الوثنية وتقديس الاصنام ويذكر بعض المؤرخين انه لما كانت بعض الاحجار البركانية يخال الناس انها ساقطة من السماء ، منحدرة لذلك من بعض النجوم فقد اتخذت اول امرها مظاهر لهذه الالهة الرفيقة وقدست بهذه الصفة ثم قدست لذاتها ، ثم كانت عبادة الاحجار حتى كان العربي لا يكفيه ان يعبد الحجر الاسود بالكعبة بل كان يأخذ معه في اسفاره اي حجر من احجار الكعبة يصلي اليه ويستأذنه في الاقامة والسفر ويؤدي اليه كل ما يؤدي للنجوم وخالق النجوم من طقوس العبادة ومن ثم استقرت الوثنية وقدست التماثيل وقدم العرب لها القرابين(٢) .

قامت عبادة الاوثان في الجزيرة العربية على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة كالارض ، والسماء والنجوم والكواكب . ولما كان العرب يعتقدون بوقوعهم في حياتهم تحت تأثيرها لذلك حرصوا على ارضائها اجتلاباً لخيرها . فاتخذوا لها اشكالا مختلفة من بيوت واشجار واحجار مصورة تمثل انساناً او حيواناً : واخرى غير مصورة وصاروا ينظرون اليها على انها رمز للقوة الطبيعية ، ومن ثم اصبحت معبودات لهم . وكانوا يطوفون حولها ويتاجرون عندها ويعتبرون المكان الذي فيه المعبود حرماً يحرم الاتيان فيه باشياء معينة(٣) .

وصف المؤرخ المسعودي (٤) مطلع الوثنية في مكة فقال : « ووليت خزاعة أمر البيت وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحي فغير دين ابراهيم وبدله

(١) العقاد ابو الانبياء ص ١٤١
(٢) هيكل : حياة محمد ص ٥٤
(٣) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٤٨
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٦

وبعث العرب على عبادة التماثيل ، فخرج الى الشام ورأى قوماً يعبدون الاصنام فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة وقويت خزاعة وعم الناس ظلم عمرو بن لحي.

و « التماثيل » و « الاصنام» كلمتان مترادفتان وهي احجار ومعادن كانت تنحت نحتاً وتصنع صناعة على اشكال وصور وهذا يعني ان العرب كانوا يطلقون اسم الاصنام ، او التماثيل على ما هو مخلق من الاوثان وانهم كانوا يعرفون مسميات اللفظين . وقال البعض ان الانصاب هي الاحجار المنصوبة للعبادة ، كما قال بعضهم انها مرادفة للاصنام ومن المرجح انها تعني المنصوبة للعبادة والطقوس سواء كانت مخلقة او غير مخلقة .

لم يكن العرب ليكتفوا بالاصنام الكبرى يقدمون اليها صلواتهم وقرابينهم . بل كان اكثرهم يتخذ له صنماً او نصباً في بيته يطوف به حين خروجه وساعة اوبته ويأخذه معه عند سفره اذا اذن له هذا الصنم في السفر . وهذه الاصنام جميعاً سواء منها ما كان بالكعبة ام حولها وما كان في مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها كانت تعتبر الوسيط بين عبادها وبين الاله الأكبر وكانت العرب لذلك تعتبر عبادتها اياها زلفى تتقرب بها الى الله وان كانت قد نسيت عبادة الله لعبادتها هذه الاصنام (١) .

وكان العرب يدركون ان هذه الاوثان لا تعتمد على رسالة او نبوة ولكنهم اعتبروها ديانة تقليدية وراثية وجزءاً من عاداتهم المتوارثة فكانوا يقولون عنها انها ديانة الآباء والاجداد . قال الله تعالى في سورة الانبياء : « اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين) .

وكان لطبيعة بلاد العرب تأثير كبير في العادات التي ورثها العرب عن آبائهم واجدادهم وتمسكوا بها طوال تاريخهم الجاهلي ولم يجهدوا انفسهم لمعرفة حقيقتها.

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٤٤

٤ ـ الكعبة في العصر القرشي

ولاية قريش للكعبة :

ظلت خزاعة تتولى شؤون الكعبة حتى برزت قبيلة قريش واستطاعت ان تجمع شملها وتوحد صفوفها . وقريش هم ولد النضر بن كنانة ، وقد سموا قريشاً حين جمعهم قصي بن كلاب الى الحرم بعد ان نفى خزاعة من القرش وهو التجمع .

وقد اجمع المؤرخون على ان قريشاً الذين منهم قصي بن كلاب الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم هم من ولد كنانة الذي يرجع نسبه الى عدنان وينتهي الى اسماعيل عليه السلام . والى ذلك يشير الحديث النبوي الكريم : « اختار الله من اسماعيل كنانة واختار قريشاً من كنانة واختار بني هاشم من قريش واختارني من بني هاشم فأنا خيار من خيار » .

كان قصي رجلا حازماً طموحاً تزوج من حبى ابنة خليل بن حبشية زعيم خزاعة ، وكان يتولى امر الكعبة ومكة ، وبدأ قصي يعمل على ان يكون الرجل الاول في مكة ، فيروي الطبري(١) : « فرأى قصي انه اولى بالكعبة وامر مكة من خزاعة وبني بكر وان قريشاً فرعة اسماعيل بن ابراهيم وضريح ولده ، فكلم رجالا من قريش وبني كنانة ودعاهم الى اخراج خزاعة وبني بكر من مكة ، فلما قبلوا منه ما دعاهم اليه وبايعوه عليه كتب الى اخيه من امه رزاح بن ربيعة بن حرام وهو ببلاد قومه يدعوه الى نصرته والقيام معه » .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٥

واستجاب رزاح لدعوة اخيه وقدم مع قومه الى مكة . ودار قتال عنيف بين الفريقين ، ثم تداعوا الى الصلح والى تحكيم رجل من العرب ، فقضى هذا هذا الرجل بأن قصياً اولى بالكعبة وامر مكة من خزاعة « وتملك قصي على قومه واهل مكة فملكوه فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي اصبح ملكا اطاع له به قومه ، فكانت اليه الحجاجة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله وقطع ارباعاً بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي اصبحوا عليها »(١) .

وهكذا بدأت مكة تأخذ شكلها وطابعها . ويذهب بعض المؤرخين الى ان مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة الى ان تولى قصي امرها . ويعللون ذلك بأن خزاعة وجرهماً قبلها لم يريدوا ان يكون الى جوار بيت الله بيت غيره وانهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم بل يذهبون الى الحل . فلما تم الامر لقصي في مكة جمع قريشاً وامرهم ان يبنوا دورهم في مكة ، وابتدأ هو فبنى دار الندوة وفيها « كانت قريش تقضي امورها »(٢) وكانت قريش اكثر قدرة من خزاعة على الاشراف على الكعبة وحكم مكة واضطرت خزاعة الى أن تقنع بالمرتبة الثانوية في مكة .

لم تعرف القبائل العربية في بلاد العرب الرئاسة المطلقة ، كما عرفتها قريش ، وانما كان في كل قبيلة نفر من « السادة » يعترف افراد القبيلة لهم بسلطان ادبي ولم تكن واجبات السيد او حقوقه محددة . اما في مكة فقد اخذت السيادة معنى حقيقياً بسبب الاستقرار وانتظام امور الجماعة ووجود الكعبة وضرورة وجود من يتولى شؤونها ومن هنا كان تنافس القبائل وشيوخها على سدانة الكعبة حتى انتهت الى قريش على يد زعيمها قصي بن كلاب(٣) .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٨
(٢) الطبري ج ٢ ص ١٨
(٣) انظر الحاشية : كتاب تاريخ التمدن ج ١ ص ٣٦

اتخذت قريش من الأرض المجاورة للكعبة حرماً أولوه احترامهم واعتبروه مقدساً وحرموا فيه القتال واخذوا على عاتقهم حمايته فأمنوا بذلك اذى غيرهم من القبائل . وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها كما ارتفع شأن قريش بين سائر القبائل العربية وعملت قريش على توثيق الصلات الطيبة بين القبائل التي تفد كل عام الى الكعبة للحج او للتجارة ، وزاد مجد قريش انها في مكة وان الكعبة في مكة .

الاوثان عند الكعبة :

كانت الكعبة مصدر رزق اهل مكة ولولاها لما استطاعوا المقام في ذلك الوادي الجدب ، ولما كانت اوثان الكعبة هي التي تجذب القبائل العربية الى مكة ولذا اهتم القرشيون بشؤونها ويسروا قدوم الحجاج اليها وانشأوا في مكة اماكن للسقاية ووفروا الطعام وجعلوا المنطقة المجاورة للكعبة حرماً لا يجوز فيه القتال وتولى وجوه قريش سقاية ورفادة الحجاج ، ونصبت قريش اصنام جميع القبائل عند الكعبة فكان لكل قبيلة اوثانها تقدم في الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها ، وزاد عدد الاصنام عند الكعبة على ثلثمائة صنم وفيها الكبير والصغير ومنها ما هو على هيئة الآدميين او على هيئة بعض الحيوانات او النباتات (١) .

ونجح سدنة الكعبة في الاستفادة من هذه الاصنام وجعلوها تدر عليهم ارباحاً طائلة واقتبسوا في ذلك بعض النظم الوثنية التي كانت سائدة حينئذ في مصر واليونان والهند وبابل ، فكان كل من يأتي ليستقسم بالازلام او ليستشير الاوثان يدفع رسوماً محددة كما كان الوافدون يشترون حاجتهم من الطعام والماء والملابس الى جانب نفقات اقامتهم ، مما أدى الى رواج تجاري في مكة . ووفر اهل مكة للحجاج والتجار الحماية والامن والسلام .

---

(١) جورجي زيدان : تاريخ التمدن ج ١ ص ٣٧

قدست بعض القبائل اصناماً معينة عرفت بالاصنام الخاصة لانفرادهم بعبادتها منها ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر . وكان يعبد هذه الاصنام الخمسة قوم نوح ، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم : « قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خساراً ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد اضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين الا ضلالا » (١) .

وكان هناك اصنام عامة تشترك معظم القبائل في تقديسها وأشهرها : اللات والعزى ومناة . وقد تحدث القرآن الكريم عنها في هذه الآية الكريمة : « افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى الكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى »(٢) .

اما اللات فهي صخرة مربعة بالطائف وعليها بناء ولها حي وحرم يقصده العرب ويقدمون لها الذبائح وكان حجابها من بني مغيث من ثقيف . وكان الثقفيون يحاولون أن ينافسوا باللات كعبة قريش بمكة . اما العزى فهي شجرة بوادي نخلة إلى الشرق من مكة وكانت من أعظم الأصنام عند القرشيين فكانوا يزورونها ويقدمون لها الذبائح كما خصصوا لها موضعاً على مثال حرم الكعبة فقد كانت الكعبة هي المثل الاعلى وبلغ من تعظيم العرب وقريش ان كانوا يسمون ابناءهم عبد العزى(٣) اما « مناة » فهي حجر اسود اقيم له معبد في قديد على الطريق بين مكة ويثرب وهي الهة القضاء ولا سيما قضاء الموت .

اما اصنام قريش فكان « هبل » اعظمها وهو صنم على صورة انسان وكان مصنوعاً من العقيق وقد كسرت ذراعه فأبدله القرشيون بذراع من ذهب . ومن اصنام قريش « اساف » و « نائلة » وقد وضع القرشيون كل واحد

---

(١) سورة نوح آية ٢١
(٢) سورة النجم آية ١٩
(٣) ابن الكلبي : الاصنام ص ١٣/١٥

منهما على ركن من اركان بيت الله الحرام فكان الطائف اذا طاف بدأ بأساف فقبله وختم طوافه به .

قال المسعودي (١) عن اساف ونائلة : « وبغت جرهم في الحرم وطغت حتى فسق رجل منهم في الحرم بامرأة وكان الرجل يدعى باساف والمرأة بنائلة فمسخهما الله عز وجل حجرين صيرا بعد ذلك وثنين وعبدا تقرباً بهما الى الله تعالى وقيل بل هما حجران نحتا ومثلا بمن ذكرنا وسميا بأسمائهما » .

كذلك نصب القرشيون على جبل الصفا صنماً يقال له « مجاور الريح » كما نصبوا « مطعم الطير » على جبل المروة . فكانت العرب اذا حجت الى الكعبة سألت قريشاً عن تلك الاصنام فيقولون لهم : نعبدها لتقربنا الى الله زلفى .

انتشرت الاصنام في مكة وسائر مدن الجزيرة العربية على شكل بيوت واشجار مصورة وغير مصورة حتى قيل انه كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنماً . فقد رأت قريش ان تنتفع من قدوم القبائل العربية في موسم الحج ، فوضعت اصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة ، حتى اذا أتوا مكة وزاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فأولوها احترامهم وتقديسهم .

ولم يكن العرب ليكتفوا بالاصنام الكبرى يقدمون اليها صلواتهم وقرابينهم بل كان اكثرهم يتخذ له صنماً او نصباً في بيته يطوف به حين خروجه وساعة أوبته واعتبروا الاوثان وسطاء وشفعاء لهم عند ربهم .

فلسفة الوثنية العربية :

كان بعض العرب ضعيفي الايمان بهذه الاوثان ويعلمون تماماً انها لا تضر ولا تنفع ولكن لم يكن في استطاعتهم ان يحدثوا انقلاباً او تغييراً فقد مضت

---

(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٠

اجيال والاوثان قائمة عند الكعبة واشتهر امرها بين العرب جميعاً واصبحت عبادة تقليدية وراثية .

والبدوي العربي لا يكترث كثيراً للدوافع الروحية بل كان يقف منها موقفاً سلبياً، وكان في ممارسته للطقوس الدينية الوثنية انما كان يحترم تقاليدها المتوارثة.

وكان سائر العرب يعتبرون هذه الاوثان وسطاء بينهم وبين الله او شفعاء لهم لديه . فان اذهان كثير من العرب في العصر الجاهلي ما كانت لتسيغ ان دعاءهم الى الله عز وجل اذا وجه منهم الـيه مباشرة يكون مقبولا . وانه لا بد لهم من وسطاء يتوسلون الى الله ويقومون نحوهم ببعض العبادات . واصبحت فكرة الشفاعة جزءاً رئيسياً من عقائدهم وعباداتهم وتطور الامر بهم حتى آمنوا بقدرة الشفعاء على النفع والضرر .

ويرى المؤرخ العربي المعاصر محمد دروزة(١) ان العرب قبل الاسلام او فريقاً منهم كانوا يعترفون بوجود الله كاله اعظم خالق السموات والارض وما فيهما وانه مدبر الكون وربه وانه هو الذي يسيطر على قوى الطبيعة ويحيي ويميت ويرزق الناس ويرسل الانبياء . وكان فريق منهم يعتقد ان ما هم عليه من عقائد وتقاليد وطقوس وتحليل وتحريم انما هو متصل بأوامر الله ومستمد من الهامه ووحيه وانه راض عنهم وعن ما اتخذوه من شركاء وشفعاء. اي انهم يعترفون بالله مع اتخاذهم شركاء وشفعاء واشراكهم معه عز وجل في العبادة والدعاء والاتجاه .

وهذه الافكار تمثل حلقة وسطى بين تفكير ديني قديم وتفكير ديني جديد . فقد كان العرب في اطوارهم الاولى وثنيين يعبدون المادة والقوى الطبيعية ويؤمنون بوجود ارواح خفية وشريرة ولم يكونوا قد تصوروا وجود الالـه الاعظم بالصفات الواجبة له او ما يقرب منها ثم اخذوا يسمعون ذكره وصفاته

(١) عصر النبي عليه السلام وبيئته ص ٣٩٦

واخذت معانيه تدخل في اذهانهم شيئاً فشيئاً حتى دخلوا في طورهم الاخير الذي كانوا عليه عند نزول القرآن الكريم وهو التسليم بوجود اله اعظم له ملك السموات والارض بيده الاكوان وتسخير القوى الطبيعية وهو ماجأ الناس ومصدر الخير . غير انهم لم يكونوا بعد قد وصلوا الى اساغة فهم اله واحد غير مادي وغير مرئي فهما تصورياً مجرداً عن الرموز والشفعاء والشركاء والوسطاء اساغة تامة .

فكانوا مع اعترافهم بالله لم يروا غنى عن معبوداتهم الاولى التي كانوا بها وبرموزها اكثر اتصالا ومشاهدة في العبادة والاتجاه وطلب العون والاستشفاع والاستعداء على قوى الشر والأذى .

ولم ينفردوا في العصر الجاهلي بعبادة الاوثان فقد كان كثير من الامم المعاصرة لهم مغرقة في الوثنية . والوثنية هي الطور الذي تمر به كل امة في بداوتها قبل ان تنتقل الى التوحيد وعبادة اله واحد واختلفت صور الوثنية باختلاف البيئات والازمنة . وعاش معظم العرب في جزيرتهم منعزلين عن اجزاء العالم الذين ارتقى اهلها من الوثنية الى اديان التوحيد .

تبابعة اليمن يحاولون هدم الكعبة :

اختص الله بلاد اليمن بالامطار الوفيرة وخصوبة الارض مما هيأ الظروف لانتاج زراعي كبير ادى الى انتشار الحضارة وقيام دول زاهرة حتى عرفت هذه البلاد باسم « بلاد العرب السعيدة » ونجحت بلاد اليمن في ان تستفيد من موقعها على طرق التجارة العالمية بين الاقليم الموسمي في الجنوب واقليم البحر المتوسط في الشمال .

ونجح اهل مكة ايضاً في الاستفادة من وجود الكعبة في موطنهم فاصبحت مقصد الاف من الحجاج والتجار . وقامت الاسواق العامرة حول مكة وخشي

اهل اليمن على تجارتهم ونشاطهم الاقتصادي وشعروا بمنافسة اهل مكة ورأى تبابعة اليمن ان يعملوا على الخلاص من الكعبة اما بهدمها اوالاستحواز عليها ، ولكنهم كانوا يترددون كثيراً في الاقدام على هذه المغامرة لمنزلة الكعبة الكبرى بين سائر القبائل العربية وما سيجره ذلك على التبابعة من لوم وسخط ، او مقاومة حربية .

ونقل قوم من هذيل من بني لحيان الى تبع باليمن ان بمكة بيتاً تعظمه العرب جميعاً وتفد اليه وتنحر عنه وتحج اليه وان قريشاً تتولى اموره وقد ارتفع شأنها وعظم ذكرها نتيجة ولايتها الكعبة واخذوا يحرضونه على هدم الكعبة وبناء بيت آخر مماثل له في اليمن ، فقالوا انه اولى « ان يكون ذلك البيت وشرفه وذكره لك فلو سرت اليه وخربته وبنيت عندك بيتاً ثم صرفت الحاج اليه كنت احق به منهم » .

وخرج تبع من اليمن قاصداً مكة ليهدم الكعبة ولكنه حاد عن عزمه وتأثر بقدسية البيت العتيق فكساه ونحر عنده، ويعلل المؤرخون هذا العدول من تبع بهبوب رياح وعواصف عنيفة اطاحت بخيام الجيش اليمني ، ورأى تبع ان ذلك من مظاهر سخط الله عليه فخشي العواقب ، بل رأى ان يعاقب بني هذيل الذين اشاروا عليه بهدم الكعبة فقتلهم .

وكان تبع اول من كسا الكعبة كسوة كاملة ويروي العمري(١) انه رأى في نومه انه يكسوها فحقق رؤياه وكساها بالملاء والوصائل وهي ثياب مصنوعة في اليمن . كما جعل تبع للكعبة بابا يغلق بضبة فارسية .

* * *

---

(١) مالك الابصار جـ ١ ص ١٠١

٥ ـ اثر الكعبة في ازدهار حضارة قريش

تطور قريش :

نشأ اسماعيل في قبيلة جرهم اليمنية بمكة بعد ان قدم ابوه ابراهيم به وظلت زعامة مكة وولاية الكعبة في جرهم حتى طغوا وتجبروا وأساءوا معاملة الحجاج واستولوا على اموال الكعبة(١) وقدمت قبيلة خزاعة من اليمن فأجلت جرهم وانتزعت منها السيادة . واستمرت تتولى شؤون الكعبة اكثر من ثلثمائة سنة احدثوا فيها كثيراً من الاوهام الفاسدة ولا سيما عبادة الاوثان حتى برزت قبيلة قريش واستطاعت ان تجمع شملها وانتزعت السيادة من خزاعة واصبح زعيم قريش قصي بن كلاب زعيماً لمكة ايضاً .

تنازع ابناء عبد الدار وعبد مناف ابنا قصي حول السيادة في مكة مما أدى الى انقسام قريش ثم اتفقوا على ان تكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة وتكون الحجابة واللواء ودار الندوة لبني عبد الدار .

كان هاشم بن عبد مناف موسراً تولى الرفادة والسقاية وكان يأخذ من القرشيين بعض مالهم كل سنة لتوفير الطعام والماء للحجاج . وهو أول من سن رحلتي الشتاء والصيف . وتولى المطلب بعد اخيه هاشم السقاية والرفادة ثم عهد بهما الى اخيه عبد المطلب .

وفي عهد عبد المطلب حدث الشقاق بين بني هاشم وبني امية ، ذلك الشقاق

---

(١) الازرقي : اخبار مكة ص ٣٦

الذي استمر طوال العصر الاموي فقد دب النفور بين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن امية . شعر حرب بالغيرة الشديدة من عبد المطلب واستحكم العداء بينهما مما هدد بانقسام قريش . ورأوا ان يلجأ الطرفان المتنازعان الى التحكيم جرياً على عادة العرب حينئذ . واحتكما الى نفيل بن عبد العزى فحكم لعبد المطلب بل توجه باللوم الى حرب فقال له : يا أبا عمرو اتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، واعظم منك هامة وأوسم منك وسامة واقل منك لامة ، واكثر منك ولداً وأجزل منك صفداً وأطول منك مزوداً (١) .

كانت حكومة مكة من النوع الذي يسميه علماء الاجتماع « الباترياركا » أي تتبع نظام الابوة او سيادة الرجل . فكان لمكة او لقريش زعيم بارز يخضع له الجميع .

لم تعرف القبائل العربية في بلاد العرب الرئاسة المطلقة كما عرفتها قريش ، وانما كان في كل قبيلة نفر من السادة يعترف افراد القبيلة لهم بسلطان ادبي وكان أعظم اولئك السادة عادة يعتبر سيد القوم وواجباته كثيرة ، ولكنها ليست محددة واذا قامت الحرب اصبحت سيادته رياسة فعلية . هذا بالنسبة للقبائل الظاعنة ، اما في مكة فقد اخذت السيادة معنى حقيقياً بسبب الاستقرار وانتظام امور الجماعة ووجود الكعبة وضرورة وجود من يتولى شؤونها . ومن هنا كان تنافس القبائل وشيوخها على سدانة الكعبة حتى انتهت الى قريش على يد سيدها قصي بن كلاب ثم حفيده عبد المطلب (٢) .

اصبحت لقريش في عهد عبد المطلب صيغة دولية . فقد كانت تربطها معاهدات سياسية واقتصادية بالدول الكبرى في العالم القديم ، وكان توقيع هذه الدول لهذه المعاهدات هو بمثابة اعتراف الدول بقريش كوحدة سياسية لها كيانها وقوامها واقتصادها .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٤

(٢) انظر الحاشية بكتاب تاريخ التمدن ج ١ ص ٣٦

فقد عقد هاشم مع الامبراطورية الرومانية ومع امير غسّان معاهدة حسن جوار ومودة وتعهد الامبراطور بالسماح لتجار قريش بالترحال في اراضي الامبراطورية في سلام . وعقد عبد شمس معاهدة تجارية مع نجاشي الحبشة . وعقد نوفل والمطلب معاهدة سياسية مع الدولة الفارسية ومعاهدة تجارية مع الدول الحميرية العربية في بلاد اليمن . ورأى العرب ان هاشماً وعبد شمس ونوفل والمطلب قد « جبر الله بهم قريشاً فسموا المجبرين » (١) .

مناصب قريش :

كانت المناصب في قبيلة قريش خمسة عشر منصباً وزعها القرشيون فيما بينهم بالعدل والقسطاس ليرضوا كل بطون قريش وحتى لا يدب التنافس والتنافر بينها .

اما هذه المناصب فهي (١) السدانة او الحجابة اي الاشراف على الكعبة (٢) السقاية اي توفير الماء للحجاج(٣) الرفادة اي توفير الطعام للحجاج(٤) الراية ويحملها احدهم (٥) القيادة اي امارة الركب في القتال او التجارة (٦) الاشناف اي الاشراف على الديات (٧) القبة اي الاشراف على المهمات الحربية (٨)الاعنة اي تولي شؤون الخيل وقت الحرب (٩) الندوة وهي دار الشورى يجتمع فيها كبار رجالات قريش ممن تجاوز عمرهم الاربعين للتشاور في مهام الامور (١٠) المشورة وصاحبها يستشار في الامور الهامة (١١) الصفارة (١٢) الاسيار وهي الازلام التي يستخيرونها (١٣) الحكومة اي الفصل بين الناس اذا اختلفوا (١٤) الاموال المحجرة وهي اموال كانوا يسمونها لآلهتهم (١٥) العمارة اي منع الكلام بصوت عال في الكعبة(٢) .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٣
(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٣٨ وتاريخ التمدن ج ١ ص ٢٩

تولى هذه المناصب افذاذ من بطون قريش اي ان قريشاً كونت جمهورية صغيرة تولاها اكفأ ابنائها، وكانت قريش تشجع العرب على الحج الى الكعبة ولذا عملت على انصاف المظلوم ونشر العدل، كما وفرت الماء والطعام للحجاج.

كانت السقاية والرفادة من ابرز المناصب، اما السقاية فتعني سقاية زمزم فكان على عبد المطلب توفير الماء للحجاج ومزجه بعسل او تمر. اما الرفادة فهي توفير الطعام للحجاج، وكانت قريش تتعاون في سبيل ذلك. وقد تولى عبد المطلب السقاية والرفادة باعتباره من بني مناف بينما تولى ابناء عمومته بنو عبد الدار الحجابة واللواء ودار الندوة، كما قضى بذلك المحكمون حينما ثار النزاع بين الفريقين على النحو الذي ذكرناه.

وان كان بنو عبد الدار قد تولوا امر دار الندوة من الناحية الرسمية، الا ان عبد المطلب كان زعيمها الروحي باعتباره زعيم قريش ومكة. وكانت هذه الدار هي دار حكومة مكة وتقع في جنوب غربي الكعبة بناها قصي سنة ٤٤٠م. وكان وجوه قريش وفي مقدمتهم عبد المطلب يجتمعون في دار الندوة للتباحث فيما يهمهم من شؤون. وكان اخطر اجتماع في عهد عبد المطلب هو اجتماع القرشيين حين قدم ابرهة على رأس جيش الاحباش لغزو مكة وهدم الكعبة. وكانت هذه الدار مكان انطلاق قوافل قريش للتجارة وعندها تنتهي. واذا بلغ غلام لقريش عذر (اي ختّن) فيها. واذا بلغت جارية لقريش جاء بها اهلها الى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعها (اي قميصها) ثم يبدأ اهلها في حجابها. وكان الزواج مسألة قبلية فكان القرشيون يتشاورون في تزويج بناتهم وتقرير مدى كفاءة الزواج وكانت هذه الدار هي التي اجتمع الوثنيون فيها لتدبير مؤامرة قتل الرسول ليلة هجرته الى يثرب.

زعماء قريش للقبائل العربية :

كانت السياسة الحكيمة التي اتبعها زعماء قريش عاملا هاماً على ارتفاع شأن قريش في مكة ثم في بلاد الحجاز جميعها ثم في الجزيرة العربية، بل سائر

ارجاء العالم القديم . فقد كانت المعاهدات التي عقدها بنو هاشم مع الدول المعاصرة لهم بمثابة اعتراف بقريش كدولة وهي وان كانت تختلف عن غيرها من الدول الا انها الصورة التي تناسب ظروف مكة وبلاد الحجاز .

وأدى اخفاق غزو الاحباش لمكة في عهد عبد المطلب الى ارتفاع ذكر قريش في ارجاء الجزيرة العربية فقد ادرك العرب ان العناية الالهية ترعى قريشاً وتصد عنها اعداءها .

اعتاد المؤرخون ان ينظروا الى المجتمع العربي في الجاهلية نظرة تقوم على وحدة القبائل وتفردها فذهبوا الى ان القبائل وهي مجموعة عصبيات متناحرة كأن كل قبيلة امة مستقلة . والحقيقة ان المجتمع العربي الجاهلي لم يكن على هذه الصورة من الجمود والتشتت ولم تعش القبائل في هذا التحاجز والتباعد بل كانت هناك حركة متحركة تقارب بين القبائل وتصل بينها بالنسب وتصل بينها بالحلف ، وكانت هناك حركة نشيطة بين القبائل في داخل الجزيرة العربية(١).

اسست قريش حكومة جمهورية من نوع الحكومات التي كانت في بلاد العرب واتخذوا جزءاً من الارض المجاورة للكعبة اولوه احترامهم واعتبروه مقدساً وحرموا فيه القتال . وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها كما اصبحت قريش محترمة في نظر القبائل العربية .

عدد الجاحظ ما تميزت به قريش على سائر القبائل العربية فتحدث عن كرمها ، وسخائها وتفوقها العقلي ونضوج افكارها وحسن تدبيرها وسماحة اخلاقها ووصف الجاحظ كيف وصلت قريش قديمها بحديثها .

ولما كانت قريش قبيلة تجارية فقد رأت من حسن السياسة ان توفر السلام في مكة وتحفظ التوازن بين القبائل حتى تضمن الامن لقوافلها وساعدها على

(١) شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١٨

تنفيذ سياستها موقع مكة الجغرافي فقد كانت مكة تقع في منتصف الطريق وكانت القوافل تستقي من زمزم وتأخذ حاجتها من الماء ولان قريشاً اهل الكعبة التي يدين العرب بعظمتها ويكنون لها الاحترام .

قال الزمخشري في الكشاف : « كانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشام فيمتارون ويتجرون ، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم اهل حرم الله وولاة بيته فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم . قال تعالى (اولم نكن لهم حرماً آمناً يجي اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون) .

اعتبرت قريش الارض المحيطة بالكعبة مكاناً مقدساً وتجعله حرماً لا يحل فيه القتال واخذوا على عاتقهم حمايته فاطمأنوا عندئذ الى انهم في أمن وسلام من اعتداء القبائل عليهم ونشوب المعارك في جوارهم وقد زاد في مجد قريش انها في مكة وان الكعبة في مكة(١) .

اثر الكعبة في ازدهار تجارة قريش :

استن هاشم بن عبد مناف رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى بلاد الشام وبرزت في عهد ابنه عبد المطلب اهمية هذه الرحلات واثرها في حياة قريش ومكة ، بل في حياة الجزيرة العربية كلها . وفي عهد عبد المطلب وصلت تجارة قريش الى ذروتها فقد بدأ القرشيون يجنون ثمار المعاهدات التجارية واتفاقات حسن الجوار التي عقدها هاشم واخوته مع دول الفرس والروم والاحباش والغساسنة والحميريين باليمن . واصبحت تجارة قريش تعرف طريقها الى كل مكان في العالم القديم وعمل القرشيون كتجار او كوسطاء تجاريين او كناقلين للتجارة . وازداد ثراء قريش في عصر عبد المطلب زيادة كبيرة ، وأدى هذا الثراء الى انتشار الحضارة في قريش والى انتشار الرخاء في مكة .

---

(١) الحضارة الاموية ص ٧٩

أشار القرآن الكريم الى رحلات قريش في الآية الكريمة : (لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) والايلاف شيء كان يحمله هاشم لرؤساء القبائل من الربح . ويجعل لهم متاعاً مع متاعه ويسوق اليهم ابلا مع ابله ليكفيهم مؤنة الاسفار ويكفي قريشاً مؤنة الاعداء فكان المقيم رابحاً والمسافر محظوظاً .

وهاشم هو الذي تنسب اليه (غزوة هاشم) في بلاد الشام . فقد كان يفضل دائماً الرحيل اليها للتجارة ، وحذا ابناؤه حذوه بعده . فكان هاشم يؤلف الى الشام وعبد شمس الى الحبشة ، والمطلب الى اليمن ونوفل الى فارس ، يؤلفون الجوار بعضهم بعضاً ويجيرون قريشاً بميرهم وكانوا يسمون المجيرين .

وكانت تجارة قريش قبل هؤلاء العظماء لا تعدو مكة انما يقدم التجار الاجانب الى مكة بالسلع المختلفة فيشتري القرشيون منهم سلعهم ويتبايعون فيما بينهم او يبيعونها لمن حولهم من العرب .

أدى نشاط هؤلاء الزعماء الاربعة من قريش الى نمو ثروة قبيلتهم واتساع تجارتها فسماهم قومهم (المجيرين) واطلق عليهم سائر العرب اسم (اقداح النضار) لطيب احسابهم وكرم فعالهم . فقد فتح هؤلاء القرشيون امام قومهم ابواب التجارة مع الدولة الرومانية وبلاد الحبشة ومصر والدولة الفارسية وكانت قريش قد زهدت منذ زمن طويل فيما كانت تعتمد عايه القبائل الاخرى من غارات وغصوب واصبحت تعتمد في مواردها على التجارة وعملت التجارة على اختلاطهم بالشعوب المجاورة (١) .

كانت الجزيرة العربية منذ اقدم العصور طريقاً عظيماً للتجارة فطوراً ينقل العرب غلات جزيرتهم العربية ، وخاصة بخور اليمن الى ممالك اخرى كالشام ومصر حيث تحتاج المعابد الى هذا البخور . وطوراً ينقل العرب غلات بعض الممالك الى البعض الآخر . وذلك لأن البحر لم يكن طريقاً آمناً ، فالتجأ الى

(١) كرد علي : الاسلام والحضارة الغربية ج ١ ص ١٢٢

الطرق البرية . وكان في الجزيرة العربية طريقان للتجارة بين الشام والمحيط الهندي احدهما من حضرموت الى البحرين والآخر يحاذي البحر الاحمر وتقع مكة في منتصف هذا الطريق .

واستفاد العرب جميعاً من هذه التجارة . فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه ، ومنهم من كان يستخدم في التجارة سائقاً او حارسا او دليلا . وبرغم حب العربي للغزو والغارات الا ان حبه للوفاء وشعوره بالشرف وتقديره للوعد الذي يصدر منه جعله ينجح في الاشتغال بالتجارة .

كان اليمنيون يسيطرون على التجارة في بداية الأمر ولكن بعد انهيار سد مأرب وانحطاط الحضارة اليمنية حل محلهم منذ القرن السادس الميلادي على ناصية التجارة عرب الحجاز وخاصة القرشيون .

ففي عصر عبد المطلب نجح الاحباش في القضاء على الدولة الحميرية في بلاد اليمن وبدأت فترة الاستعمار الحبشي لبلاد اليمن . واستفاد القرشيون من انهيار هذه الدولة اليمنية فقد حلوا مكانهم في ميدان التجارة .

كان القرشيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ثم يبيعونها لحسابهم في اسواق فارس ، لان التجارة مع الفرس كانت في يد عرب امارة الحيرة . وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ووضعوا الطريق تحت حمايتهم ، ووصل المكيون قبيل الاسلام في عهد عبد المطلب عندما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه ، الى درجة عظيمة من التجارة وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم في استيراد ادوات الترف وخاصة الحرير(١) .

ويذكر المؤرخ (اوليري) في كتابه (الجزيرة العربية قبل محمد) انه كان للرومان بيوت تجارية في مكة وكانت تقوم بعملين العمل التجاري العادي ،

---

(١) احمد امين : فجر الاسلام ص ١٣

والتجسس على احوال العرب . كما كان في مكة احباش يتولون شئون تجارة بلدهم .

كان الجمل سفينة الصحراء ، وكانت القافلة اسطولها ويمكن ان نسمي البدو الذين يقودون قوافل قريش ملاحي الصحراء ، فقد جابوا الصحراء بإبلهم وقطعانهم وقوافلهم وتبين لنا الكتابات القديمة اهمية التجارة بين الاقطار الواقعة بين الحجاز وجنوب بلاد العرب والهند والحبشة واليمن وبين بلاد الشام .

بلغت ثروة قريش ذروتها وقد مارس القرشيون جميع اعمال التجارة فقد مارسوا ما يشبه اعمال المصارف المالية . وكانوا يفضلون ان يستثمروا اموالهم في تجارة الابل والاغنام والاقمشة والمعادن والجلود والعطور والاصباغ والجواهر والاصواف والحرائر والحلي والاثواب المنسوجة في مدينة (تانيس) والبصر ودمشق والمصوغات المجلوبة من منف وهرموبوليس والعاج وريش النعام من الحبشة والسودان والاخشاب من صور وصيدا ولبنان والقراطيس من الشام ونابوليس (١) .

كانت بلاد العرب وعرة الا على القرشيين لعلمهم بالصحراء وسبلها ومواضع الأمن والخوف فيها ، وقدرتهم على تحمل القيظ وعناء السير ، ولم يكن لاهل الشام والحبشة وغيرهما سبيل للسير في هذه الفيافي والقفار الكثيرة الوعورة والاخطار . فاحتكر القرشيون تجارة بلاد العرب السعيدة اي اليمن والشام وغيرهما . وكان من اثر احتكارهم تلك التجارة وانتشارها في مكة ان حاز اهلها ثروات ضخمة .

ولم يكن حب ابناء الاشراف والنبلاء واهل الشرف في قريش للفروسية بأقل من حبهم للتجارة التي كانوا يمارسونها منذ نعومة اظفارهم . اضف الى ذلك ازدياد عددهم على الايام لجودة غذائهم بالنسبة لغيرهم من القبائل وعدم

---

(١) لطفي جمعة : ثورة الاسلام ص ١٣٩

تعرضهم للمنازعات والحروب التي انهكت قوى العرب في جاهليتهم . كما ساعدتهم ثروتهم على قرى الضيف فلهجت بمجامدهم ألسنة الشعراء والوافدين على مكة من كافة ارجاء بلاد العرب(١) .

بعد نجاة مكة من الغزو الحبشي في عهد عبد المطلب عظمت مكانة مكة الدينية ، كما عظمت مكانة قريش التجارية . واصبح القرشيون لا يفكرون شيء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة ومحاربة كل من يحاول الانتقاص منها او الاعتداء عليها ، وزاد المكيين حرصاً على مكانة مدينتهم ما كانت تتيحه لهم من رخاء وترف على اوسع صورة يستطيع الذهن تصورها للترف في هذه الجهة الصحراوية الجرداء(٢) .

ازدهرت التجارة في مكة وصاحب هذه التجارة اعظم مظاهر العمرة والحج بهجة ، وهو انعقاد الاسواق السنوية العامرة في مكة في موسم الحج وكانت الحياة العربية تصل فيها الى أوج نشاطها وعظمتها .

كان الاشتغال بالتجارة يحتاج الى الالمام بالاحوال السياسية والتجارية في العالم القديم ، ولذا اهتم القرشيون بدراسة العلاقات القائمة وقتذاك بين الفرس والروم والاحباش واليمنيين والمشاكل التي تشوب هذه العلاقات .

واصبحت تجارة قريش مدرسة او جامعة عملت على تكوين افراد ذوي خبرة وتجارب وعلم يصعب على المدارس او الجامعات العادية تخريجهم فيها . وكانت التجارة تقتضي الالمام بجوانب الحساب التجاري وكل ما يتربط بالتجارة من الدراية بالمكاييل والموازين والمقاييس العالمية وما يتعلق بالنقد الاجنبي ، والعملات الدولية والعقود والصكوك ، وغير ذلك من الاساليب التجارية ومستلزماتها الضرورية .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٦٤
(٢) هيكل : حياة محمد ص ٦٥

كما اصبحت جدة التي كانت تبعد عن مكة بنحو اربعين ميلا ميناء قريش وامتلك القرشيون عدداً كبيراً من السفن كانوا يعبرون بها البحر الاحمر الى الحبشة برغم خطورة الملاحة في هذا البحر وقتذاك حيث كانت السفن لا تزال بدائية الصناعة .

واصبح القرشيون وسطاء تجاريين بين اقليم البحر المتوسط المعروف بغلاته المتميزة المتوافرة في الشام وفلسطين وآسيا الصغرى وبين ذلك الاقليم الموسمي في جنوب الجزيرة العربية التي تشتهر بغلات كان العالم القديم يحتاج اليها مثل التوابل والبخور .

استفاد القرشيون فوق تجارتهم المادية اقتباسهم الواناً عديدة من الحضارتين الرومانية والفارسية . فقد كان التجار القرشيون يطلعون على معالم هاتين الحضارتين حينما يقصدون مدن الدولتين الرومانية والفارسية ويختلطون بأهلها. وقد نقلوا الى اللغة العربية كثيراً من المصطلحات والكلمات الرومانية والفارسية. وادى اطلاع القرشيين على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في دولتي الفرس والروم الى نمو ثقافتهم وزيادة معلوماتهم ورقي افكارهم . فكان معظم القرشيين يلمون بالقراءة والكتابة والحساب ، مما اتاح الفرصة لظهور شخصيات مستنيرة استطاعت ان تتولى امور الدولة العربية الاسلامية التي بزغت بظهور الاسلام .

حضارة قريش :

بلغت قريش في عهد عبد المطلب شأواً بعيداً في الحضارة لم تبلغه في أي عهد من عهودها قبل الاسلام . وان كان قصي بن كلاب قد وضع بذور هذه الحضارة فقد جنى حفيده عبد المطلب الثمار . ولذا لا عجب ان ارتفع شأنه وعظم امره .

اصبحت الجزيرة العربية بسبب وجود مكة المدينة المقدسة مركز الحياة التجارية ، ولذا اثرت واثرى اهلها وادخروا الاموال والمعادن النفيسة وعرفوا الواناً من الترف وتقلبوا في الوان النعمة والرفاهية .

وقد روى الواقدي ان العرب استخرجوا الذهب من مناجم سليم وجلبوه الى مكة حيث صنعوا منه انواعاً عديدة من الحلي وادخروه سبائك ذهبية . وظهر من بين اهل مكة رجال حازوا ثروات كبيرة نتيجة اشتغالهم بالتجارة . وكانت المنازل في مكة تقدر بالذهب وتراوح ثمن الدار بين مائتين وخمسمائة دينار . وامتلك المكيون الجياد الكريمة وتفاخروا بعددها ونسبها . واشتهر المكيون بالكرم والشهامة والمروءة واكرام الضيوف ، وبدا هذا الكرم واضحاً زمن الحج فقد حرصوا على توفير وسائل الراحة للحجاج .

لم تقم في عهد عبد المطلب حروب قبلية مثل التي كانت تحدث بين حين وحين في عصور الجاهلية ، تلك الحروب التي كانت تثير النفور بين القبائل وتسفك الدماء وتشل نشاط العرب الاقتصادي وتهدد طرق القوافل . وحرص عبد المطلب على حل جميع المشاكل بالطرق السلمية . فقد كانت تلك الحروب القبلية تهدد قوافل قريش وخاصة قوافل رحلتي الشتاء والصيف ، وهي تمثل ابرز موارد قريش . وكان عبد المطلب يلجأ الى التحكيم كلما بزغ نزاع بين القبائل . فقد آثر اللجوء الى التحكيم حين شب العداء بينه وبين ابن اخيه امية بن عبد شمس وحين كشف عبد المطلب عن بئر زمزم وجد كثيراً من الحلي والنفائس الذهبية ونازعته قريش فيما وجد وقام نزاع عنيف واختار عبد المطلب طريق التحكيم لانه طريق السلام . وحين قدم ابرهة على رأس جيش حبشي لغزو مكة وهدم الكعبة لجأ عبد المطلب الى طريق المفاوضات فقد تكون اجدى من السيف والحرب . ولذا كان عبد المطلب بحق رجل سلام يعمل على ان ترفرف راية الامن والطمأنينة على مكة وبلاد العرب .

مالت قريش في حياتها السياسية الى الديمقراطية وكانت دار الندوة تشبه

البرلمانات المعاصرة فلم يكن احد من زعماء قريش ليستبد برأيه او ينفذ أمره الا بعد ان يعرض مهام الامور على وجوه قريش في دار الندوة ، بل كـــان هؤلاء الوجوه يتدخلون في زواج ، فتيات قريش ، فقد كان الزواج مسألة تهم القبيلة كلها وليست مسألة شخصية او فردية ، فقد كانت العرب تفخر بالانساب ونقاء الدماء . واذا قارنا ديموقراطية قريش بارستقراطية الامم العظمى المعاصرة للجاهلية وخاصة الفرس والرومان لادركنا سبق العرب في هذا المجال .

كانت مكة مركز الحياة التجارية والادبية ببلاد الحجاز فكان يقدم اليها العرب من كل مكان زمن الحج والمواسم العربية فيتناقلون الآداب الاجتماعية بعضهم من بعض ويتناشدون الاشعار الحماسية ويتحدثون بشرف اصلهم وكرم مجدهم فتغرس كل هذه المظاهر الاجتماعية والادبية في نفوس اطفالهم المواهب النادرة والقرائح الوقادة والخصال الكريمة وتدفع بهم الى جليل الاعمال واسمى الغايات(١).

لم يكن معظم العرب يهتمون بتعليم أطفالهم القراءة والكتابة ، فلم يكـــن التعليم منتشراً في الجزيرة العربية في ذلك الحين ، كما كان العرب قد انشغلوا بالبحث عن موارد الحياة والسعي وراء الرزق عن التعليم ، فقد كانت طبيعة بلاد العرب قاسية لا تجود بالخير العميم . ولكن الله عز وجل قد عوضهم عن ذلك بذاكرة قوية ، وسعة أفق ، وصبر وقوة احتمال ، وخيال فياض . .

ولكن قبيلة قريش كانت أكثر هذه القبائل اهتماماً بالتعليم ، نتيجة الحضارة التي وصلت اليها ، ونمو ثرائها ، واحتكاكها بالدول الكبرى المتحضرة الى جانب حاجة القرشيين الى التعليم ليقوموا بواجبهم التجاري . وقد كان عبد المطلب ، مثله في ذلك مثل معظم القرشيين ، يجيد القراءة والكتابة والحساب.

وصف الألوسي في كتابه (بلوغ الأرب) العرب فقال عنهم : « والحاصل

---

(١) تاريخ الاسلام ج ١ ص ٦٦

أن العرب لما كانوا أتم الناس عقولا وأحلاماً وأطلقهم وأوفرهم أفهاماً ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة وأورثهم كل منقبة جليلة ، وتحدث ابن رشيق في كتابه (العمدة) عن العرب فقال عنهم : « العرب أفضل الأمم ، وحكمتها أشرف الحكم » .

مهرت قريش في عدة علوم ، فالى جانب العلوم التجارية التي تعلموها بالتجربة والخبرة والمران حتى حذقوها ، مهروا في علم الانواء فعلموا مواعيد نزول الأمطار وهبوب العواصف والرياح ، كما أجادوا علم الأثر ، وتتبعوا آثار الاقدام في الصحراء ، وكانت تدلهم أحياناً على مسالك الصحراء ودروبها. كما برعوا في علم الانساب ، وقد كانت قريش تدرك منزلتها بين القبائل العربية ، ولذا حفظوا أنسابهم واهتموا بتسلسلها وبرز من القرشيين نسابون ذاع صيتهم بين العرب .

وعدد الجاحظ صفات العرب وعدد العلوم التي اشتغلوا بها فقال : أذهان حداد ونفوس مفكرة ، فحين جلوا حدهم ، ووجهوا قواهم الى قول الشعر وبلاغة المنطق ، وتصاريف الكلام ، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر ، وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع، والاعتبار بكل محسوس وأحكام المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية وحازوا كل أمنية ، وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهممهم أرفع ، وهم من جميع الامم أفخر ، ولأيامهم أذكر .

ولم يحل عدم انتشار التعليم في بلاد العرب دون قيام نهضة أدبية في هذا العصر الذي ندرسه . وليس أدل على تلك النهضة من ازدهار الشعر الذي يكون صورة صادقة للخلق القومي ، والذي يختلف تماماً عن الشعر في الشعوب السامية الشمالية في مادته وتركيبه . وتناول الشعر العربي القديم حياة العرب بجميع جوانبها ، وطالما تغنى الشعر العربي بذكر تلك الحياة وامتداحها وصبغها بجم

الالوان من الاخيلة الشعرية ، كما لم ينس هذا الشعر نصيبه من الحكم الرائعة والافكار القيمة . ولم تكن القافية خاصة بالشعر ، فقد تقفى العبارات التي لها علاقة ما بالامور الدينية والاحاديث ذات الخطر ، والتي ليست خاضعة لقواعد الشعر الضيقة ، مثل تنبؤات بعض المتنبئين وحكم الحكماء (١) .

ارتفع شأن قريش في أرجاء الجزيرة العربية والدول المعاصرة ، ونظر الجميع اليها بعين الحرمة والاجلال ، لشرف المحتد ، وسمو الفكر ، ولانهم حماة الكعبة.وسدنتها وعظم أمرها بعد اخفاق أبرهة الحبشي في غزو مكة وهدم الكعبة ، فارتفع شأن عبد المطلب وقبيلة قريش .

وقد ظهرت قريش بمظهر الحذق والفطنة في التجارة ، والميل الى السلم من أجل اشتغالهم بالتجارة ، فخلصوا بالتدريج من شوائب البداوة ، وكفوا عن الرحيل لرعي الابل وتربية الانعام ، واستقروا وثبتوا ونظموا أسفارهم، في قوافل رتيبة على ظهور الابل لجلب الخير الى وطنهم .

أصبحت قريش رمزاً للسلام في الجزيرة العربية ، والداعية اليه ، فقد أدركوا أهمية تحقيق السلام لهم ، وما يعود به عليهم من فوائد اقتصادية ومكاسب مادية .

ونعمت قريش بالهدوء العائلي ، فقد فطنوا الى متعة السفر في سبيل الكسب ولذة الحنين الى الوطن وهم بعداء ، وفرحة العودة الى الدار ولقاء الاسرة والاصحاب والتردد على مجالس السمر بعد طول الاغتراب . ورغبت قريش عن الغزو واثارة الاحقاد بينهم وبين جيرانهم ، بل اتخذوا من هؤلاء الجيران أحلافاً وأعواناً وأضيافاً يرحلون الى بلادهم في أعمالهم فيصلون الى الشام والى اليمن جنوباً ، والى نجد وتهامة ونجران .

نسب المؤرخ الالماني « فلهوزن » ارتقاء مكة والحجاز الى تفوق سكان مكة

---

(١) تاريخ الاسلام ج ١ ص ٦٨

س قريش ، ذلك أن نهضة أهل مكة الثقافية تأثرت بالعلاقات الطيبة مع الساميين الشماليين فالمقطوع بأن التجارة التي امتدت الى سوريا والحيرة وجنوب بلاد العرب قد حملت اليهم مؤثرات ومطامع جديدة ، ولذا كان من بين الرجال الذين عرفوا القراءة والكتابة قبل الاسلام عدد كبير نسبياً من أهل مكة .

ويرى (فلهاوزن) أن أهل مكة ، برغم افتقارهم الى نظام حكومي تحلوا بروح التعاون ، ونظر ثاقب في الامور التي تهم الصالح العام ، وذلك بصورة لا نجد لها مثيلا في أي مكان آخر من بلاد العرب . فبالرغم من أن كل أسرة كانت في جوهرها حكومة قائمة بنفسها ، فانها وضعت مصالح مكة أولا وقبل كل شيء ، أي أنه قام هناك سلطان يدل على وجود نظام صالح لادارة مكية ، وهذا النظام كان حدثاً هاماً في بلاد العرب برغم بساطته وضيق حدوده .

* * *

٦ ــ اثر الكعبة في تطور مكة

نشأة مكة وتطورها :

قامت مكة في عصر اسماعيل ، الجد الأكبر لعبد المطلب ، وبدأت مكة تدخل من أبواب التاريخ وتتجلى عظمتها في عهد قصي بن كلاب ، وبلغت ذروة مجدها في العصر الجاهلي في عهد عبد المطلب ، ثم تشهد مكة مشرق نور الهداية ، فيولد فيها خاتم الانبياء وسيد المرسلين ، محمد الهاشمي القرشي .

كان وادي مكة ، قبل قيامها ، موئلا لراحة القوافل . والراجح أن اسماعيل ابن ابراهيم كان أول من اتخذها مقاماً وسكناً . وبعد تفجر بئر زمزم نزلت بهذا المكان قبيلة جرهم فقد أصبحت الحياة ممكنة . وشب اسماعيل في هذه القبيلة وتعلم منهم اللغة العربية . ثم كان قيام ابراهيم واسماعيل ببناء الكعبة بأمر من الله عز وجل ، فكتب المولى بذلك الخلود والمجد لمكة فقد أصبحت موطن الكعبة ومقصد الحجاج .

تولى عبد المطلب أهم مناصب القيادة والزعامة في مكة . ولم تكن هذه المهام شخصية أو عائلية مجردة من ملابسات أخرى، كما أن البيوتات التي كان يقوم ممثلوها بها لم تضطلع بها ارتجالا وبقوتها الخاصة بها ، بل انها كانت مهام ذات صبغة أو سلطة رسمية اضطلعت بها هذه البيوتات .

كان أهل مكة على صلة وثيقة بالعالم المتمدن ، وكانوا ملمين بوسائل الحكم في الدول المعاصرة ، واقتبسوا منها ما يلائمهم ، وتولى زعماء قريش السلطات الدينية والمدنية معاً . وتوارثوا هذه المناصب ، تبعاً لتقاليدهم الخاصة .

بدأ ظهور مكة كمدينة كبيرة عامرة في عهد قصي بن كلاب ، وتحدث ابن هشام (١) عن مكة في عهد قصي فقال : « فولي قصي البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم الى مكة ، وتملك على أهل قومه وأهل مكة فملكوه الا أنه أقر للعرب ما كانوا عليه ، وذلك أنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره . فحاز ، شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها .

كانت منازل أهل مكة تحيط بدارة الكعبة وتقترب منها أو تبتعد عنها تبعاً لما لكل أسرة وفخذ من أهمية ومقام ، فكان القرشيون أقرب أهل مكة الى الكعبة . وكانت الجامعة المكية ايلافاً من الأسباط المجاورة ، كل سبط يقيم في أحد الاحياء ، ولم يكن في مكة سلطة عامة ، فكان الاسباط وشيوخها مصدر السلطات ، يحكمون بما يحقق المصالح العامة . وكان في مكة جاليات أجنبية ، يهودية ونصرانية وسورية ومصرية وحبشية ورومية وفارسية ، وكان كثير منهم يشتغل بالصناعات ، وقدم كثير منهم بعد اضطهادهم في بلادهم الاصلية ، وتعدد هذه الأجناس يبين صلات مكة بالبلاد المختلفة وامتلأت مكة بالمنازل الفخمة ، وكانت مكة تفخر على سائر مدن الحجاز بوجود الكعبة بها .
لم تكن مكة في عهد عبد المطلب تستطيع أن تنافس مدن الجزيرة العربية في خيراتها أو بذخها ، فقد كانت تقع في أجدب بقاع بلاد العرب . ولكنها كانت تستطيع أن تفخر عليها بوجود الكعبة المقدسة في حماها . ولم يكن منظر مكة في عهد عبد المطلب يختلف عن غيرها من مدن الصحراء العربية ، ولكنها تفوقها جميعها بأنها تحوي من البيوت الفخمة ما هو أكثر عدداً وأجمل شكلا .

من أعلى جبل أبي قبيس الذي يشرف على مكة من الشرق ، يبدو شكلها المستطيل من الشمال الى الجنوب في بطن واد ضيق . وعندما ينظر اليها المرء ، لأول وهلة ، فانه لا يكاد يميزها من الأديم الذي تقوم عليه ان الجبال الجرداء

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٢٤

الصخرية التي تحيط بها لا يفصلها عنها بأية واحة ، فليس بينها وبين مكة أي بقعة خضراء ، وأن سطوح منازلها لتختلط بمنهار الصخور التي تحدرت على سفوح تلك الجبال .

أما بعد أن تراض العين شيئاً فشيئاً ، فإنها تميز البيوت والدور ، وتكشف المداخل الخفية ، ويتنبه الانسان بغتة لمنظر مفاجىء لمدينة كبيرة، لم يكن يظن وجودها في هذا المكان فان العين تراها تكبر دون حد حتى ليكاد الانسان يعزو اتساعها المفاجىء الى سحر ساحر ، وتبدو الصخور بدورها وكأنها تحولت الى منازل ، وتبدو الآكام أشبه بضواح واسعة لا يدرك الطرف لها نهاية(١) .

كان في مكة في عصر عبد المطلب جاليات أجنبية ، سورية ومصرية ، وحبشية ، ورومية وعراقية . وكان كثير منهم يمارس ألواناً من الاعمـــال الصناعية ، وكانوا نواة الطبقات من الصناع المحليين . ولم يكن التكسب والعمل في مجالات النشاط الاقتصادي خاصاً بالرجل بل شاركت المرأة فيه . وتنوع جنسيات الاجانب ، أحراراً وأرقاء ، يدل على صلات مكة ببلاد الشام ، وفارس ومصر والحبشة والعراق ، وكـــانت مكـــة موئلا لكـــل من يقع عليه اضطهاد ديني أو عنصري في هذه البلاد . ولقي المهاجرون من زعماء مكة ترحيباً وتشجيعاً (٢) .

وفي عصر عبد المطلب ، كان الاحابيش يكونون جانباً من مجتمع مكة . ويستعمل لفظ (الاحابيش) في الدلالة على القوة العسكرية التي كانت قريش تستأجرها قبيل الاسلام للدفاع عن مكة أو قوافلها التجارية التي كانت تتردد بين الشام واليمن ، ويؤخذ من صريح النصوص العربية ، لغوية كانت أو تاريخية ، أن هذه القوة كانت عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة

---

(١) اتين دينيه : محمد ص ٥٦ .

(١) دروزه : عصر النبي ص ١٠٢ .

وخزيمة اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامة ، ومن خزاعة التي كانت تنزل بظاهر مكة . وذكر المؤرخ (فلهاوزن) أن الاحابيش أحلاف قريش السياسيون .

هذا بينما يرى المستشرق (لامانس) أن الاحابيش كانوا كلهم أو جلهم على أقل تقدير ، زنوجاً من الحبشة ، وقام المرحوم الاستاذ العبادي ببحث حول هؤلاء الاحابيش ، ثم أكد ثلاثة أمور : أولا : أن الاحابيش كانوا عربا . وثانياً : أن القول بعروبتهم هو المتفق مع تاريخهم . ثالثاً : أن العبيد الذين كانت قريش تستعين بهم في حروبها لم يكونوا من الاحابيش في شيء. ثم ذكر أنه كان بمكة قوة من الجيش حقاً . ولكن هذه القوة لم تكن من الاحابيش في شيء ، بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد تخدم أشراف مكة في السلم والحرب ، وبعض هذه الطبقة اشتراه الاشراف بالمال وبعضها كان من فلول حملة أبرهة الحبشي التي حاولت غزو مكة وهدم الكعبة في عهد عبد المطلب(١) .

كان أهل مكة على صلة وثيقة بالعالم المتمدين، وكانوا واقفين على ما في هذا العالم من أساليب للحكم والادارة ، وقد اقتبس أهل مكة من ألوان الحضارة والترف وأشكال الحكومة ما يناسبهم ، وصبغوه بصبغة خاصة ، تتلاءم مع بيئة مكة العربية . وقامت جمهورية مكة كدولة من دول المدن ، وهي تختلف عن الدول المعاصرة لها ، كما تختلف تماماً في شكلها عن أشكال الحكم المختلفة التي عرفتها القبائل العربية البدوية ، وكانت التجارة مصدراً لثراء مكة ، كما كانت الكعبة منبعاً للنفوذ السياسي والديني .

الكعبة ومكة في عهد عبد المطلب :

ورث عبد المطلب الزعامة عن آبائه . ولكنه أثبت جدارته ، وقام بواجبات الزعامة خير قيام ، وتحدث المؤرخون عن جوانب العظمة في شخصية عبد

---

(٢) العبادي : صور من التاريخ الاسلامي ص ١٤ .

المطلب . كما اعترف معاصروه له بالزعامة والتفوق ونعمت مكة في عهده بعصر من أزهى عصورها في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

في ميدان السياسة الداخلية ، نجح عبد المطلب في أن يحفظ السلام في مكة ، وعاشت القبائل جنباً الى جنب في هدوء وسلام . وكان الثراء الذي تدفق على قريش دافعاً لها على تجنب الحروب القبلية الصغيرة التي كانت مكة تشهدها من قبل من أجل موارد الحياة . واستكانت سائر القبائل لسيادة قريش وأعجبتهم السياسة الرشيدة التي ساسهم عبد المطلب بها .

وفي ميدان السياسة الخارجية . عمل عبد المطلب على توثيق صلاته الخارجية بالدولتين الفارسية والرومانية وامارتي الحيرة والغسانية ، وبلاد اليمن والحبشة. وظلت اليمن والحبشة ، وظلت علاقة عبد المطلب بالدولة الحبشية طيبة في أول الامر ، حتى إن عبد المطلب أراد أن يكون النجاشي حكماً بينه وبين عمه نوفل حتى كان بناء أبزهة كنيسة صنعاء ورغبته في تحويل الحجاج العرب اليها .

وفي مجال النشاط الاقتصادي ، أصبحت مكة بعد سقوط الدولة الحميرية في بلاد اليمن مركز الحياة الاقتصادية في بلاد العرب وملتقى قوافل دول العالم القديم . وازدحمت مكة بالتجار من مختلف الاجناس والاديان ، وشهدت مكة ألواناً مختلفة من الحضارات واللغات والثقافات .

ارتفع شأن عبد المطلب بعد اعادته حفر زمزم ، فقد كان أهل مكة يعانون طول تاريخهم قلة موارد المياه ، فكانوا يجلبون المياه على ظهور الابل من خارج مكة فيتجشمون النفقات والمشقات . حتى اذا كشف عبد المطلب عن بئر زمزم ، تدفق الماء وعاد الخير العميم ، واعتبر أهل مكة الكشف عن زمزم حدثاً كبيراً .

أبدى عبد المطلب خلال غزو الجيش الحبشي لمكة ثباتاً وحزماً وهدوءاً ، ونجح في تنظيم خروج أهل مكة الى الجبال والشعاب والوديان ، ووحد عبد

المطلب صفوفهم فتناسوا أمام العدو الاجنبي المشترك خلافاتهم القديمة ووقفوا وراء عبد المطلب وأصبح العرب يؤرخون لاحداثهم بعام الفيل احياء لذكرى انتصارهم وسلامة الكعبة ومكة من هذا الغزو الحبشي .

تولى عبد المطلب اطعام الحجاج وسقايتهم ، واشترك في اجتماعات دار الندوة ، وكان لمكة في عهد عبد المطلب ميزانية ثابتة منظمة ، وكان عبد المطلب يجمع بعض المال من اهل مكة لتوفير الطعام والماء للحجاج وشراء كسوة حريرية للكعبة .

رفرفت راية العدالة في سماء مكة في عصر عبد المطلب فقد كان زعيماً رشيداً ورئيساً عادلا سخر جهوده لخدمة اهل مكة وحجاج الكعبة فيسر امور الحج وبعث بقوافل مكة الى كل مكان في العالم القديم . ودافع عن مكة ضد هجوم الاحباش ونجح في توحيد صفوف المكيين ضد العدو المشترك، ولا شك ان هذه العدالة وهذا الاستقرار الداخلي وهذه النهضة الاقتصادية قد ادت جميعاً الى رخاء وافر وحضارة زاهرة بدت معالمها في صور مختلفة .

ينظر المؤرخون عادة الى العصر الجاهلي على انه عصر ظلمات وفوضى ، فيذهبون الى أن العربي في الجاهلية لم يعرف حضارة ولم يتذوق ثقافة وجرده المؤرخون من الفنون والآداب . ولكن هؤلاء المؤرخين تجاهلوا تلك الدول التي قامت على اطراف الجزيرة العربية كدولة البابليين والاشوريين والاراميين والكنعانيين والمعينيين والسبئيين . وقد قدمت هذه الدول للانسانية الواناً من الحضارة .

كانت مكة موطن الكعبة ودار سلام يأمن فيها كل انسان على نفسه وحريته ومتاعه . وعمل اهل مكة على جذب الناس من كل مكان الى مكة للحج او للتجارة او للسياحة تحقيقاً لفائدة مادية تعود على اهل مكة نتيجة كثرة الوافدين. وكان المكيون يوفرون للقادمين الماء والطعام ويقيمون لهم الولائم ويذبحون الذبائح ويؤمنونهم على ارواحهم واموالهم .

تميز نظام مكة التجاري بانه نظام محكم متقن ، فان اهل مكة لم يكونوا ليؤمنوا باكتناز الاموال واحتباسها . فان المكي اذا ما زاد دخله من التجارة سعى الى استغلال ماله في مشاريع اخرى . وكان الشريك الموصي غير العامل بأخذ نصف الارباح مما جعل كل فرد يساهم بأي مبلغ صغير في التجارة ، وكان تنظيم القافلة ورحيل القوافل الاجنبية ووصولها الى الامور التي تهم اهل مكة جميعاً ، وكانت قوافل مكة ضخمة في حجمها حيث بلغ عدد الابل احيانا الفين وخمسمائة بعير وعدد الرجال ثلثمائة رجل (١) .

تطورت مدينة مكة وصارت مدينة كبرى وخاصة بعد سقوط الدولة الحميرية في بلاد اليمن وكان ذلك في مطلع عهد عبد المطلب . وقد اكتسبت مكة هذه المكانة لا لوجود الكعبة بها او لازدهار تجارتها او لموقعها الجغرافي فحسب ،وانما ينسب ذلك الارتقاء ، كما يرى المؤرخ (فلهاوزن) الى تفوق سكان مكة من قريش الذين اقتبسوا الواناً عديدة من الحضارة واجادوا القراءة والكتابة واصبح المكيون ارقى من سائر البدو سكان الجزيرة العربية ، بل ارقى من اهل يثرب المشتغلين بالزراعة ، فقد عاش اهل مكة في طور صناعي تجاري بينما كان سكان يثرب لا يزالون يمرون بالطور الزراعي ، وعرفت مكة الواناً من الخدمات البلدية والعناية بالمرافق العامة والطرق وتنظيم ملكية العقارات وكان الموسرون يشعلون نيراناً عظيمة فوق تلال مكة تكون منارات ترشد القوافل والضالين .

وكانت اشهر الحج اشهراً حرماً يحرم فيها القتال ، فكان العرب يغتنمون فرصة هذه الهدنة المقدسة فيشدون الرحال الى مكة من كل مكان في الجزيرة العربية يشهدون الاسواق التي كانت تقام قبل الحج ، والتي كانت تمارس اغراضاً اقتصادية ومباريات أدبية . وقد اهتمت قريش واهل مكة بسوق

---

(١) حسيني : الادارة العربية ص ٢٩ .

عكاظ الذي اصبح مسرحاً للادب والشعر ، تتسابق فيه القبائل الى اظهار نوابغها من الشعراء والخطباء . وكان لعكاظ في ايام الموسم رجل يولونه الحكومة للفصل في ما قد يقع من خلاف . ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ وقفوا في عرفة ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويرجعون الى مواطنهم .

ولما كانت مكة مركزاً للحج ، فان كبار المواطنين فيها وضعوا ترتيبات للخدمات البلدية في بلدتهم فتطوع الناس لامداد الحجاج بالمياه ومهدت طرقات البلدة ومسالكها وعني بكنسها ونظافتها ، وكانت معظم الطرقات ضيقة. وتعاون المكيون في سبيل وقف السيول التي قد تنحدر من سفوح الجبال المحيطة بمكة . وكان الارقاء يقومون بنقل المياه من الآبار الكثيرة الموجودة خارج مكة الى الكعبة ليمدوا الحجاج بحاجتهم من المياه .

واتخذ كل حي من احياء مكة مستودعاً خاصاً بها لنفاياتها . وكانت الاضاءة ليلا نادرة عند العرب قبل الاسلام . فقد كان العرب يتناولون عادة عشاءهم قبل ان يحل الظلام . وجاء في احد الامثال العربية « خير العشاء بواصره » اي ما يبصر فيه الطعام قبل هجوم الظلام . وكان الزيت شحيحاً في بلاد العرب ، فقد كان زيت الزيتون يستورد من الخارج . ولذا لم يستخدم عرب الجاهلية عامة المصابيح واقتصر استعمالها على بيوت اعيان مكة الذين ساعدهم الثراء على استيراد حاجاتهم من الزيت فكانت تجلبه قوافل مكة العديدة . وكان كبار اهل مكة الموسرون يضرمون نيراناً عالية فوق قمم الجبال وفي الاماكن المرتفعة لتكون منارات للسارين الذين ضلوا الطريق .

اصبحت مكة في عصر عبد المطلب تشبه مدينة روما القديمة في شبه جزيرة ايطاليا . فقد أوت اليها بضع قبائل بعد ان تعبت من حياة التنقل والارتحال وتطلعت الى السكون والاستقرار ، فلجأت الى تلك البقعة المقدسة من الأرض التي كانت وسطاً بين الجدب والخصب ووسطاً بين السهل والوعر . وأقامت تلك القبائل في مكة فصلي الربيع والخريف ، اما الشتاء فكانت تمضيه في جدة

على شاطىء البحر الاحمر ، اما الصيف فكانت تقضيه في مدينة الطائف القريبة من مكة ، والتي جادت الطبيعة عليها بهواء طيب ومحصولات أوفر ، لكثرة امطارها وارتفاع ارضها (١) .

اختارت هذه القبائل المقام في مكة لأنها مدينة عريقة ، تقوم فيها الكعبة المقدسة ، كما انها سوق تزخر بالبضائع التي تفد عليها من ارجاء العالم القديم كالهند وفارس والصين والشام ومصر واليمن . وبدأ سراة هذه القبائل في بناء بيوت ثابتة حول الكعبة من الحجارة والآجر ، وبدأوا يعتمدون على التجارة في مواردهم بدلا من الرعي او الزراعة(٢) .

وشهدت مكة نهضة ادبية وانتجت رجالا نبغوا في السياسة والقيادة والادارة قاموا بدور كبير بعد ظهور الاسلام (٣) .

* * *

(١) حسيني : الادارة العربية ص ٣٢
(٢) ثورة الاسلام ص ١٤١ .
(٣) جورجي زيدان : تاريخ التمدن ج ١ ص ٤١ .

٧ ـــ بئر زمزم

بئر زمزم ومشكلة الماء في مكة :

مما اشتهر به عبد المطلب في التاريخ انه قام باعادة حفر بئر زمزم التي ما زالت قائمة حتى الآن يتبرك المسلمون بها . وكان لاعادة حفر هذه البئر دوي في ارجاء الجزيرة العربية .

كانت مكة تعاني دائماً من الجدب وقلة المياه وكان يمر بها احياناً مواسم جفاف قد تستمر ثلاث سنوات او اكثر . وفي بعض الاحيان كان ينزل المطر على شكل سيول لفترة قصيرة . وجاء وصف مكة في القرآن الكريم على لسان ابراهيم : « ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » ويروي المؤرخون انه اطلق على مكة هذا الاسم لقلة مائها ، فقد كان العرب يقولون امتك الفصيل ضرع أمه ، اي امتصه حتى لم يبق فيه شيئاً .

اتجه ابراهيم بهاجر واسماعيل نحو الجنوب حتى بلغوا الوادي الذي تقوم مكة اليوم به . وكان هذا الوادي مضرب خيام القوافل التي ترحل بين الشام واليمن . وتركهما ابراهيم في هذا المكان بعد ان ترك لهما بعض التمر القليل من الماء. ثم نفذ الطعام والماء واخذت هاجر تبحث عما يحفظ حياة وليدها اسماعيل واخذت تسعى بين الصفا والمروة وأشفق المولى عز وجل عليهما ففجر بئر زمزم . روى ابن هشام (١) القصة فقال : « ان هاجر اخذت تبحث عن الماء فلم تجده فقامت الى الصفا تدعو الله وتستغيثه لاسماعيل ثم اتت المروة

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١١١ .

ففعلت مثل ذلك . وبعث الله تعالى جبريل عليه السلام ، فهمز له بعقبه في الارض فظهر الماء ، وسمعت امه صوت السباع فخافت عليه ، فجاءت تشتد نحوه فوجدته يفحص بيده عن الماء تحت خده ويشرب فجعلته حسياً » . وجذب ظهور الماء قبيلة جرهم اليمنية فأقامت في هذا المكان وشب اسماعيل في هذه القبيلة وتزوج من فتياتها .

وتحدث ياقوت الحموي(١) عن مصير زمزم فقال : « وتطاولت الايام على ذلك حتى غورت تلك السيول وعفتها الامطار فلم يبق لزمزم اثر يعرف» أي ان ياقوت يرى ان العوامل الجغرافية قد ازالت معالم زمزم . اما المؤرخون فينسبون اختفاء زمزم الى أسباب تاريخية . فيرون ان سيداً من سادات مكة . وهو مضاض بن عمرو الجرهمي كان يعيش قبل عبد المطلب بنحو ثلثمائة سنة كان قد اشتبك في حرب مع اعدائه انتهت بهزيمته ، وادرك ان اعداءه لن يلبثوا ان يخرجوه من مكة ، ورأى مضاض ان يحرمهم من مورد المياه الرئيسي في مكة ، فأخفى في بئر زمزم بعض نفائسه وذهبه ثم ردمها واخفى علاماتها وساعدته الطبيعة على احكام اخفائها فتكاثرت الرمال عليها حتى اندثرت ، ثم هرب مضاض الى بلاد اليمن واضطر اهل مكة الى البحث عن موارد جديدة للمياه ، فحفروا آباراً اخرى معظمها خارج مكة .

اقبل اهل مكة على حفر الآبار اذ ان المياه الجوفية هي المورد الوحيد للماء، فقد حرمتهم الطبيعة من الامطار الغزيرة المنتظمة ، كما حرمت مكة من الانهار الجارية والمياه المتدفقة .

حفرت كل بطن من بطون قريش في رباعهم بئراً ، فاحتفر بنو تميم بن مرة الجفر وهي بئر مرة بن كعب وحفر عبد شمس بن عبد مناف بئراً اخرى وسماها (الطوى) وحفر هاشم بن عبد مناف بئر (بذر) وأباح للناس الاستفادة

---

(١) معجم البلدان جـ ١٠ ص ١٤٩ .

من مائها . وحفر هاشم ايضاً بئر (سجله) وظلت ملكاً لبني هاشم حتى اعاد عبد المطلب حفر بئر زمزم فمنح هذه البئر الى بني نوفل بن عبد مناف . وحفر امية بن عبد شمس بئر (الحفر) واحتكر الاستفادة من مائها لنفسه . وحفرت بنو عبد الدار بئر (ام أحراد) كما حفرت بنو جمح بئر (السنبلة) وحفرت بنو سهم بئر (الغمر) . كما كان هناك عدة آبار في خارج مكة يرجع تاريخها الى عهود زعماء قريش الاوائل منذ عهد مرة بن كعب وكلاب بن مرة ، أشهرها بئر (رم) وقد حفرها مرة بن كعب بن لؤي وبئر (ضم) وقد حفرها بنو كلاب بن مرة(١) .

كان قصي بن كلاب جد عبد المطلب الأكبر يسقي الحجاج في حياض من أدم وكان ينقل الماء من آبار خارجة من مكة ، منها بئر ميمون الحضرمي ثم احتفر قصي (العجول) في دار ام هانىء بنت ابي طالب وهي اول سقاية احتفرت بمكة ، وكانت العرب اذا استقوا منها ارتجزوا فقالوا :

نروى على العجول ثم ننطلـــق ان قصياً قد وفى وقد صدق

فلم تزل العجول قائمة طوال حياة قصي وبعد موته ، حتى كبر عبد مناف ابن قصي فسقط فيها رجل من بني جعيل فعطلوا العجيل واندفنت واحتفرت كل قبيلة بئراً .

اختلف المؤرخون في سبب تسمية بئر زمزم بهذا الاسم. فيذكر المسعودي: سميت زمزم لأن الفرس كانت تحج اليها في الزمن الاول فزمزمت عليهـــا والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء ، وقيل بل سميت زمزم لانها زمت بالتراب ، لئلا يأخذ الماء يميناً وشمالاً . ويروي المسعودي ايضاً ان الفرس كانت تعتقد انها من ولد ابراهيم الخليل عليه السلام . وقد كانت اسلافهم تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيماً لجدهم ابراهيم وكان آخر من

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٨ — ١٥٠ .

حج منهم ساسان بن بابك ويذكر ياقوت الحموي(١) ان زمزم سميت بهذا الاسم لكثرة مائها فيقال ماء زمزم وزمازم. ويروي ان البعض: يرى انها سميت لزمزمة جبرائيل عليه السلام وكلامه عليها . ولهذه البئر اسماء اخرى منها زمم وزمزم وزمازم وركضة جبرائيل وهزمة جبرائيل وهزمة الملك والركضة والهزمة هما المنخفض من الارض .

الــرؤيا :

تولى عبد المطلب السقاية فكان ينقل الماء من الآبار خارج مكة الى احواض الى جوار الكعبة وكان عبد المطلب يلقي الكثير من المشقة فلم يكن له من الاولاد سوى الحارث . ثم حدث ان شهدت مكة عام جدب، امتنع فيه سقوط الامطار وكادت تجف مياه الآبار ، وبدت في الافق مشكلة كبرى فقد قدم آلاف الحجاج واخذ عبد المطلب يفكر في وسيلة لتوفير الماء لهم .

وانتهى موسم الحج وعاد القرشيون الى مجتمعاتهم . وفي ليلة من ليالي الربيع اجتمعوا في دار عبد المطلب يتسامرون ثم ساقهم الكلام الى ما عاناه عبدالمطلب لتوفير الماء للحجاج وحمدوا الله ان يحفظ سمعة قريش بين العرب وتذاكروا بئر زمزم وتمنوا لو توصلوا الى مكانها . وروى امية بن عبد شمس ، وكان عالماً بالاحداث الماضية ، قصة مضاض بن عمرو الجرهمي واخفائه معالــم زمزم . وتمنى عبد المطلب في نفسه لو نجح في الكشف عن مكان زمزم فتعود مياهها الى التدفق من جديد ليرتاح من مشكلة المياه في مكة .

يتحدث بعض المؤرخين القدماء عن الرؤيا التي رآها وأمر فيها بحفر زمزم . فيذكر ابن هشام (٢) « ثم ان عبد المطلب بينما هو نائم في الحجر اذ أتي فأمر بحفر زمزم » وينسب ابن هشام قصة الرويا الى المؤرخ ابن اسحق : « وكان أول ما ابتدأ به عبد المطلب من حفرها كما حدثني يزيد بن ابي حبيب

---

(١) معجم البلدان جـ ١٠ ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٢ .

المصري ، عن مرشد بن عبد الله اليزني عن عبدالله بن زرير الغافقي : انه سمع علي بن ابي طالب رضي الله عنه يحدث حديث زمزم ، حين امر عبد المطلب بحفرها...»

روى عبد المطلب قصة رؤياه فقال : « اني لنائم في الحجر(١) اذ أتاني آت فقال : احفر طيبة(٢) قال : قلت : وما طيبة ؟ قال : ثم ذهب عني . فلما كان الغد رجعت الى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني فقال : احفر برة(٣) . قال فقلت : وما برة ؟ قال : ثم ذهب عني ، فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال : احفر المضنونة(٤) . قال: ثم ذهب عني. فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه ، فجاءني ، فقال : احفر زمزم . قال : قلت : وما زمزم ؟ قال : لا تنزف(٥) ابداً ولا تذم(٦) تسقي الحجيج الاعظم وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الاعصم عند قرية النمل(٧) » .

وهكذا حددت الرؤيا مكان بئر زمزم فقالت انها بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الاعصم عند قرية النمل . اما الفرث والدم فقد وصفه المؤرخون بأن ماءها طعام وشفاء سقم ، أما عن الغراب الاصم ففيه اشارة الى ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ليخبرن الكعبة ذو السويقتين من الحبشة. واما قرية النمل ففيها من المشاكلة ايضاً والمناسبة : ان زمزم هي عين مكة التي يردها الحجيج والعمار من كل جانب فيحملون اليها البر والشعير وغير ذلك وهي لا تحرث ولا تزرع ، وقرية النمل كذلك لا تحرث ولا تبذر وتجلب الحبوب الى قريتها من كل جانب .

---

(١) الحجر : فناء الكعبة .
(٢) قيل لزمزم طيبة لانها للطيبين والطيبات من ولد ابراهيم .
(٣) لأنها تفيض على الأبرار .
(٤) لانها تضمن على غير المؤمنين .
(٥) لا تفرغ .
(٦) لا يقل ماؤها .
(٧) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٣ .

هذه هي رواية ابن هشام وهو من الثقات، وقد ردد خبر هذه الرؤيا كثير من المؤرخين والكتّاب قدامى ومحدثون، ومن المؤرخين من لم يشر الى هذه الرؤيا ومن هؤلاء : المسعودي اذ اغفل في كتابه (مروج الذهب) قصة الرؤيا واكتفى بأن قال : « وقد كان حفر بئر زمزم وكانت مطوية وذلك في ملك كسرى قباذ فاستخرج منها غزالتي ذهب عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلى وسبعة اسياف قلعية ، وسبعة ادرع سوابغ فضرب من الاسياف باباً للكعبة وجعل احدى الغزالتين صفائح ذهب في الباب وجعل الاخرى في الكعبة (١) »

صور الاديب الكبير الدكتور طه حسين في كتابه (على هامش السيرة) رؤيا عبد المطلب في صورة ادبية رائعة فقص الأديب قصة ذلك الهاتف الذي رآه عبدالمطلب في مضجعه ثلاث ليال يأمره بحفر طيبة او بره او المضنونة . وقد اصبح عبد المطلب بعد رؤياه في حيرة وقلق حتّى انه فكر في ان يقص امره على الكاهن ، ولكن خشي ان يظن به الكاهن الظنون ، وتشيع المقالة فيسخر منه حرب بن امية ولداته ويتندر عليه فتيان مخزوم . وظن عبد المطلب انه ربما يكون هذا الهاتف ظل ميت من موتى قريش قد أنسيه قومه فهم لا يزورونه ولا يقربون اليه . او لعله شيطان من هذه الشياطين التي تلح على الانس فتفرض عليهم الطاعة ولعله نذير من احد الالهة يطالب بالتضحية والقربان .

وفضل عبد المطلب ان يفضي بحيرته الى زوجته الحبيبة سمراء طالباً مشورتها فقالت له : هون عليك ولا تغل في الخوف ولا تسرف في الاشفاق ، ما أكثر ما يلم هذا الطيف بالناس عندنا في البادية فلا يحفلون ولا يأبهون ومع ذلك فما يمنعك ان تتقرب انت الى الالهة في غير توسط للكاهن ولا توسل به قم فضحّ لهم وقرب اليهم فسيرضون وسيرضى الفقراء والجائعون و سيغيظ ذلك قوماً من قريش .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٧ .

وقضت مكة يوماً دامياً سميناً كثر فيه الطعام وكثر فيه الشراب ورضيت فيه الاصنام وأوى عبد المطلب الى مضجعه راضياً مسروراً فجاءه الهاتف مرة أخرى فقال : احفر زمزم ، فتساءل عبد المطلب : وما زمزم؟ قال لا تنزح ولا تذم تسقي الحجاج الاعظم وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الاصم . فقال عبد المطلب : الآن قد وعيت .

عودة زمزم :

حددت الرؤيا لعبد المطلب المكان الذي اذا حفر فيه كشف عن بئر زمزم التي تدفقت في عهد جده الأكبر اسماعيل بن ابراهيم ، والتي اصبحت مكة في أشد الحاجة لاحيائها من جديد لتسد النقص الشديد في الماء الذي يعاني المكيون منه وخاصة زمن الحجيج . وكان هذا المكان الذي حدده الهاتف يقع بين الوثنيين اساف ونائلة وبقي على عبد المطلب ان يلبي نداء الهاتف .

يروي ابن هشام(١) ان عبد المطلب خرج للبحث عن مكان بئر زمزم وانه لم يصحب معه للقيام بهذا العمل الجثماني الشاق غير ابنه الحارث ويعلل ابن هشام ذلك بأنه « ليس له يومئذ ولد غيره » .

ولكننا لا نعتقد انه اكتفى بهذا الغلام وهو مقبل على عمل خطير يحتاج الى بذل مجهود كبير من حفر الى ازالة الرمال لأنه لم يرزق سوى هذا الغلام . فقد كان عبد المطلب زعيم مكة ورئيس قريش ويستطيع ان يحشد العشرات بل المئات من ابناء قريش او مكة للبحث عن بئر جدهم اسماعيل وخاصة ان مشكلة المياه مشكلة عامة تمس حياتهم جميعاً .

ربما ظن عبد المطلب ان هذا الهاتف من قبيل اضغاث الاحلام او هو من الشياطين العابثين او من الارواح الشريرة ، فخشي عبد المطلب ان يقع في

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٣ .

مكيدة او خداع ، ورأى ان ينفرد هو وولده بالبحث عن بئر زمزم ، حتى اذا أخفقا احتفظا بسرهما دون ان يعلم اعداؤهما بالامر فيصبحا موضع شماتتهم وسخريتهم .

وقد يكون عبد المطلب واثقاً من التوفيق مطمئناً الى انه سيكتشف بئر الاجداد التي اصبحت مكة في مسيس الحاجة اليها ، وان هذا الكشف سيكون له دوي كبير ورنة فرح في قلوب المكيين فرأى عبد المطلب ان ينفرد وابنه بالمجد والسؤدد .

خرج عبد المطلب وابنه الحارث وقد حملا معولا وهي الفأس الكبيرة ومكتلا وهو زنبيل من خوص ومسحاة وهي مجرفة يجرفون بها الرمال وهي الادوات التي سيحتاجانها للحفر وازالة الرمال المتراكمة. وقصدا من فورهما الى المكان الذي حدده الهاتف فوجدا قرية النمل ووجدا الغراب ينقر عندها بين الوثنين اسلاف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان فقد رآهما بعض القرشيين يحفران الارض بين وثنيهما المقدسين ، ولم يدركوا حقيقة الدافع لعبد المطلب وابنه على الحفر ، وربما ظنوا انهما يريدان انتهاك حرمة هذين الوثنين ، فقالوا لعبد المطلب : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما ، فقال عبدالمطلب لأبنه الحارث : ذد عني حتى احفر ، فوالله لأمضين لما امرت به . ولما رأوا اصراره على المضي فيما بدأ فيه خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه .

روى ابن هشام(١) ان عبد المطلب لم يحفر الا يسيراً حتى بدا له الطمى فكبر وادرك القرشيون ان عبد المطلب قد صدق ومضى عبد المطلب في الحفر واذ به يجد ما لم يكن يتوقعه ، فقد عثر على غزالين من ذهب ، كما وجد اسيافاً وادرعاً ثمينة ، وهذه النفائس كانت لمضاض الجرهمي وقد طمرها في بئر

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٦

رمزم قبل هربه من وجه اعدائه الى اليمن حتى لا يعثروا عليها ، وكان قد عجز أن يحملها معه الى منفاه ، وتراكمت الرمال مع السنين لتخفى هذه الذخائر عن العيون والايدي .

ولكن عثور عبد المطلب على هذه النفائس خلق له إشكالا لم يكن في الحسبان فقد نازعه القرشيون فيما وجد وقالوا له : لنا معك في هذا شرك وحق . قال : لا ، ولكن هلم الى امر نصف بيني وبينكم نضرب عليها بالقداح ، قالوا : كيف تصنع ؟ قال : اجعل للكعبة قدحين ولكم قدحين فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . قالوا : انصفت فجعل عبد المطلب قدحين اصفرين للكعبة وقدحين اسودين لعبدالمطلب وقدحين ابيضين لقريش ، ثم اعطوا القداح الى صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل . وكان هبل هذا صنماً في جوف الكعبة وهو من اعظم اصنامهم . وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل ، فضرب صاحب القداح فخرج الاصفران على الغزالين للكعبة وخرج الاسودان على الاسياف والادرع لعبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش . فضرب عبد المطلب الاسياف باباً للكعبة وضرب في الباب الغزالين الذهبيين .

ويروي ابن هشام(١) ايضاً رواية اخرى حول موقف القرشيين من العثور على هذه الذخائر الذهبية في بئر زمزم . فروى ان القرشيين قد أرادوا ان يشاركوه فيما عثر عليه من نفائس فقالوا : يا عبد المطلب انها بئر أبينا اسماعيل وان لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها قال : ما أنا بفاعل ان هذا الأمر قد خصصت به دونكم واعطيته من بينكم . فقالوا له : فأنصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها. قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم احاكمكم اليه. قالوا : كاهنة بني سعد هذيم . ووافق عبد المطلب على اقتراحهم ، وكانت هذه الكاهنة تسكن عند مشارف الشام .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٤ .

ركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف وركب من كل بطن من بطون قريش نفر فخرجوا حتى اذا كـانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام نفد الماء من عبد المطلب واصحابه، فظمئوا حتى ايقنوا بالهلاك، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا : انا بمفازة ونحـن نخشى على انفسنا مثل ما أصابكم .

فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه واصحابه قال : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأينا الا تبع لرأيك فمرنا بما شئت. قال : فاني ارى ان يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة فكلما مات رجل دفعه اصحابه في حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلا واحداً فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً . قالوا : نعم ما أمرت به . فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً . ثم ان عبد المطلب قال لاصحابه: والله ان القاءنا بايدينا هكذا للموت لا نضرب في الارض ولا نبتغي لانفسنا لعجز فعسى الله ان يرزقنا ماء ببعض البلاد ارتحلوا .

بدأ عبد المطلب وصحبه يستعدون للرحيل وأخذ من معهم من بطـون قريش ينظرون اليهم ما هم فاعلون وتقدم عبد المطلب الى راحلة فركبها فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر اصحابه، ثم نزل فشرب وشرب اصحابه ، واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم ، ثم دعا القرشيين فقال: هلم الى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا ، واقبل القرشيون على الماء ينهلون منه وما لبثوا ان قالوا لعبد المطلب: قد والله قضي علينا يا عبد المطلب والله لا نخاصمك في زمزم ابداً ، ان الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هـو الذي سقاك زمزم ، فارجع الى سقايتك رشدا . وعاد عبد المطلب ومن معه ادراجهم الى مكة وقد استغنوا عن قصد الكاهن وخلوا بين عبد المطلب وبئر جده اسماعيل .

نتائج الكشف عن زمزم :

وهكذا تدفق الماء من جديد من بئر زمزم تروي الزرع وتنشر الخير وتكسو الارض خضرة رائعة واطمأن عبد المطلب الى توفير الماء للحجاج وارتفع ذكره بين العرب جميعاً .

اصبحت الاسياف والادراع والغزالتان حلية للبيت الحرام . ولكن بريق الذهب جعل بعض اللصوص يتسللون في جنح الظلام الى الكعبة وجردوها مما تتحلى به من ذهب واسياف ودروع ولكن زمزم لا زالت قائمة تفيض بالخير العميم .

تعجب (مرجوليوث) في كتابه (تاريخ محمد) من تجشم عبد المطلب هذه المتاعب والمشاق ليوفر للحجاج حاجتهم من الماء وظن ان عبد المطلب كان يبيع هذا الماء للحجاج فيربح من بيعه ربحاً طائلا . وقد رد عليه احد الكتاب(١) المحدثين رداً مقنعاً فقال : وغني عن البيان ان مرجوليوث يقيس على بعض بلاد اوربا الغربية حيث لا يقام للكرم وزن الا نادراً فلا يتصور رجلا يضيع ماله على الجود وصنع الخير لانه في معظم بلاد اوربا لا يستطيع الرجل ان يشرب جرعة ماء بلا مقابل، دع عنك الطعام فكيف يصح في ذهن مرجوليوث وأمثاله ان عبد المطلب ينقل الماء ويضع فيه التمر والزبيب للحجاج تقرباً منه لله وخدمة عامة للجماعة المكية ، ولكن الشرق كريم والماء ملك مشاع بين القبائل .

تحدث ابن هشام (٢) عن نتائج الكشف عن زمزم فقال : « فعفت(٣) زمزم على البئار التي كانت قبلها يسقى عليها الحاج وانصرف الناس اليها لمكانها من المسجد الحرام ولفضلها على ما سواها من المياه ولأنها بئر اسماعيل بن ابراهيم

---

(١) لطفي جمعة : ثورة الاسلام ص ٢٥٦ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٠ .
(٣) عفت على البئار : غطت عليها واذهبتها .

عليهما السلام وافتخرت بها بنو عبد مناف وهو يفخر على قريش بما ولوا عليها السقاية والرفادة وما اقاموا للناس من ذلك وبزمزم حين ظهرت لهم ، وانفاً كان بنو عبد مناف اهل بيت واحد شرف بعضهم لبعض شرف وفضل بعضهم لبعض فضل » .

مر عبد المطلب خلال حفر زمزم بتجربة خطيرة واستعاد الاحداث التي مر بها فتذكر كيف كان ولده الوحيد يعاني من الحفر وهو لا يزال حدثاً وتذكر موقف القرشيين منه وكيف تجرأوا عليه فطلبوا ان يشاركوه فيما عثر عليه من نفائس . شعر عبد المطلب بضعفه وقلة اهله وتحركت في نفسه رغبة جديدة هي الاكثار من النسل . تقدم عبد المطلب الى عمر بن عائذ المخزومي فخطب اليه ابنته فاطمة فبنى فيها ورزقها الله منه ما شاء من الاولاد .

كبرت اسرة عبد المطلب منذ صار له من الاولاد الحارث ، والزبير ، وحجل ، وضرار ، والمقوم ، وابو لهب، والعباس ، وحمزة، وابو طالب ، وعبدالله ، ومن البنات : صفية ، وبرة ، وعاتكة ، وام حكيم ، وأحيحة ، وأروى . وكانت امنية عبد المطلب ان يصبح له عشر بنين ، وقد نذر اذا تحققت الامنية ان ينحر احدهم عند الكعبة تقرباً لله .

* * *

٨ ـ الكعبة وحملة الفيل

العرب بين الفرس والروم والاحباش :

في عهد عبد المطلب وقع حادث عظيم خلده القرآن الكريم واسهبت المصادر التاريخية في الحديث عنه . فقد حاول الاحباش يقودهم ابرهة غزو بلاد الحجاز وفتح مكة وهدم الكعبة . وكانت هذه هي اول محاولة لجيش اجنبي لغزو بلاد الحجاز وكان الفرس والروم قد فكروا مراراً في غزو بلاد الحجاز من الشمال ولكنهم عدلوا عن هذه المشروعات لاستحالتها. ثم كانت هذه المحاولة الحبشية بايعاز من الروم لغزو الحجاز من الجنوب ولكن خاب فألهم فللكعبة رب يحميها ويرد عنها المعتدين .

نجت بلاد الحجاز ونجد من الغزو والاستعمار الاجنبي . فلم تكن لهذه البلاد خيرات او مميزات تجذب الفاتح وتشجعه على تحمل وعورة السطح وقسوة المناخ بل ان هذه البلاد لا تجود حتى لسكانها ما يمكنهم من حياة رغدة .

وصف المؤرخ (سيديو) (١) بلاد الحجاز فقال: ان الحجاز يجذب النفوس ويشوقها اكثر من غيره لاشتماله على اكثر مدائن العرب . ويتخلل ارض الحجاز كثبان من الرمال وآكام خصبة وهي مساكن القبائل وحول هذه الآكام قرى وضياع وهي قلاع حصينة تقيهم شر هجمات الاعداء وينبت بمنحدراتها بعض الحبوب والثمار التي تستعمل علفاً للماشية وبها عيون ماء كثيرة .

وتحدث المؤرخ (واشنجتون ارفنج) (١) عن مدى تعرض الجزيرة العربية

---

(١) تاريخ العرب العام .

(٢) حياة محمد ص ١٩ (من ترجمة مؤلف هذا الكتاب) .

للغزو فقال : ربما تدلنا دراسة اخلاق وطبائع العرب على الاسباب التي جعلت احوال العرب ثابتة على مر الزمن . فقد كان وضعهم الجغرافي وصحاريهم القاحلة الواسعة تحميهم من الغزو ، كما ادى نزاعهم وصراعهم المستمر ورغبتهم في الاستقلال الديني والسياسي الى ان صاروا بعيدين عن الغزو والاستعمار .

كانت كل من الدولتين الفارسية والرومانية تتمنى لو انها نجحت في بسط سلطانها على اقليم الحجاز فقد كانت الدولتان قبل ظهور الاسلام تتنافسان على مناطق النفوذ ، ولكن وعورة الطرق الموصلة الى الحجاز وطول خطوط الامدادات والتموين وجدب الصحراء ، وعدم وجود جيش عربي مركزي توجه اليه الدولة الفارسية او الدولة الرومانية جيوشها وجهودها ادى الى بقاء الحجاز في ايدي اصحابه من العرب بعيداً عن السيطرة الاجنبية .

حتى اذا لمس الفرس والروم عجزهم عن بسط نفوذهم السياسي على بلاد الحجاز اتجهوا الى بلاد اليمن حيث كانت تحكمها الدولة الحميرية العربية . وأخذ الرومان ينشرون المسيحية كتمهيد لبسط السيادة الرومانية ، وأدرك الفرس حقيقة اهداف الرومان فعملوا على الوقوف في وجه السياسة الرومانية وأخذوا يعرقلون التجارة الرومانية في الخليج الفارسي .

كانت اليهودية قد انتشرت في بلاد اليمن في العصر الحميري واعتنقها أحد ملوك الحميريين وهوذ ونواس ، وأخذ يضطهد المسيحيين فهاجم نجران معقل الجالية المسيحية وخيّر أهلها بين الارتداد عن المسيحية او القتل فاختاروا الاستشهاد من أجل عقيدتهم فقتلهم حرقاً في الخنادق . وكان الامبراطور البيزنطي يعتبر نفسه حامياً للمسيحيين ، ولذا غضب لما نزل بالمسيحيين في نجران ، وكتب الى نجاشي الحبشة يامره بغزو اليمن والانتقام من ذوي نواس واستجاب النجاشي لنداء الامبراطور فبعث حملة تتألف من سبعين الف رجل بقيادة (أرباط) .

كانت الحبشة حينئذ في ذروة مجدها ، تجري بأمرها على البحار تجارة واسعة، ويمخر لها العباب اسطول قوي يجعلها تتسلط بنفوذها على ما حاذاها من البلاد وكانت حليفة الامبراطورية البيزنطية ورافعة علم المسيحية على البحر الاحمر، كما كانت بيزنطة رافعة علمها على البحر المتوسط(١).

انتصر الاحباش على ذي نواس والحميريين سنة ٥٢٣م، وقد روى الطبري(٢) ان ذا نواس همز جواده واقتحم امواج البحر ولم ير ثانية . وهكذا كانت خاتمة آخر حميري انتهى بذهابه عصر استقلال اليمن .

تظاهر الاحباش انهم قدموا للانتقام من ذي نواس لما حل بالمسيحيين في نجران ، ولكنهم كانوا يتخذون هذه الحجة ستاراً يخفون وراءه اغراضهم الاستعمارية . فقد اصبح ارباط حاكماً على بلاد اليمن وظل يتولى امور هذه البلاد حتى أخذ عليه قواده انحيازه الى فريق منهم في توزيع العطاء والغنائم ، فاجتمعوا بقيادة ابرهة وقضوا عليه . وبذلك خلا الجو لابرهة . فولي الحكم في اليمن بدلا من ارباط (٣) .

أقام الاحباش في اليمن كفاتحين وانقلبوا مستعمرين، وظلوا من سنة ٥٢٥ — ٥٧٥ م يهيمنون على بلاد اليمن واستثمروا مواردها الاقتصادية لمصلحتهم .

كنيسة صنعاء وكعبة مكة :

اتخذ ابرهة من صنعاء عاصمة للمستعمرة الحبشية الجديدة في بلاد اليمن وبنى فيها واحدة من اعظم كاتدرائيات العالم فخامة وروعة وهي التي يسميها كتاب العرب (القليس) وهي مشتقة من كلمة يونانية (اكليزيا) . ومعناها كنيسة . وقد اراد الاحباش ان تكون هذه الكنيسة الكبرى نواة لدولة مسيحية

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٣٦ .
(٢) الطبري ج ٢ ص ١٠٩ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١ .

كبرى في بلاد اليمن ثم تمد هذه الدولة نفوذها فيما بعد على شبه الجزيرة العربية فيصلون بذلك بين دولة الاحباش المسيحية والدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) التي تمتد الى مشارف الجزيرة العربية حيث تقوم امارة الغساسنة .

تميزت كنيسة صنعاء بالضخامة والفخامة ، ويرى الدكتور (حتي)(١) ان الاحباش المسيحيين كانوا ينوون تنصير البلاد وخلق منافس لمكة الوثنية التي كانت مركز الحج في الشمال لان الحج كان مورد دخل عظيم لاولئك الذين يسكنون في تلك المدينة التي كان يسافر اليها الحجاج او على مقربة من الطرق التي كانت تؤدي اليها . وقد نجح الاحباش بتأسيس ذلك المعبد الديني في الجنوب في اجتذاب الجماهير ، واصبح التنافس الاقتصادي عظيماً . ويذكر الاستاذ الدكتور طه حسين (٢) ان أبرهة رغم انه بذل جهداً كبيراً في ترغيب الناس في ان يتخذوا من كنيسته بصنعاء كعبة لهم الا ان العرب كانوا اهل وثنية وحاج في الوثنية فكانوا يكبرون من أمر ابرهة ويعظمون سلطانه ويبتغون عنده المعروف ولكنهم كانوا يكرهون دينه وتأبى نفوسهم الاستجابة له ، وكان الذين يختلفون الى كنيسته قليلين مهما كثروا .

سميت هذه الكنيسة (القليس) لارتفاع بنائها وعلوها وقد استذل ابرهة اهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة ، وجشمهم فيها الواناً من السخرة وكان ينقل اليها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ومن شدته على العمال كان العامل إذا طلعت عليه الشمس قبل ان يبدأ عمله قطعت يده .

كتب ابرهة الى النجاشي انه يريد ان يصرف حجاج العرب الى كنيسته ويحول تجارة قريش الى صنعاء ، وجاء في رسالته : « بنيت لك بصنعاء بيتاً لم

---

(١) تاريخ العرب ص ٧٦ .
(٢) على هامش السيرة ص ١٤١ .

تبن العرب ولا العجم مثله ولن انتهي حتى اصرف حاج العرب اليه ويتركوا الحج الى بيتهم » .

أثار مشروع ابرهة حفيظة العرب ، فخرج رجل من بني مالك بن كنانة حتى قدم اليمن ودخل الكنيسة وعبث بأثاثها وانتهك حرمتها . وغضب ابرهة لذلك اشد الغضب واقسم ليهدمن الكعبة وليحملن العرب على ان يحجوا الى كنيسته بالسيف بعد ان اعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين . وتحدث ابن هشام(١) عن اثر قسم ابرهة في العرب فقال: «وسمعت بذلك العرب، فاعظموه وقطعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام » .

ولم يكد النهار يتقدم حتى رفعت الانباء الى ابرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذي ارسله اليهم ملكاً ، فزادت ثورته وأمر بالاستعداد في حالة للقتال والرحيل الى مكة وبعث برسالة الى النجاشي ينبئه باستعداده للحرب ، ويطلب منه ان يمده بالجنود والفيلة ، واستجاب النجاشي لطلبه ونجح ابرهة في تكوين جيش كثيف العدد كامل العتاد .

لم تكن محاولة الاحباش هدم الكعبة في مكة هي المحاولة الاولى لهدم هذا المكان المقدس . فقد كان بعض اهل اليمن قديماً يرجون الخلاص من الكعبة اما بهدمها او الاستحواذ عليها .

كان اهل اليمن قد بدأوا يهاجرون الى ارجاء الجزيرة العربية ولفتت مكة انظارهم واسترعت انتباههم وفكر بعضهم في الاستيلاء عليها للاستفادة مما كان الحج الى الكعبة يعود به من منافع مادية ، واختلفت خطط تبابعة اليمن

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٥ .

فبعضهم يريد هــدم الكعبة فتصده القبائــل المحيطة بالحرم خزاعة او قريش ويدنو بعضهم من الكعبة فيعظمها ليستولي عليها بالحيلة .

قدم قوم من هذيل من بني لحيان الى (تبع) باليمن ينبئونه أن بمكة بيتاً تعظمه العرب جميعاً وتفد اليه ، وتنحر عنده ، وأن قبيلة قريش تتولى الاشراف عليه ، فحازت المجد والشرف ، واقترح القوم على تبع أن يخرج لهدم الكعبة ، وأن يبني بيتاً آخر باليمن فيحوز ما حازته قريش .

خرج تبع من اليمن قاصداً مكة ليهدم الكعبة ، ولكن سرعان مــا تأثر بما لبيت الله الحرام من رهبة وقدسية ، فقد أحجم عن هدمه ، بل كساه ونحر عنده . ويعلل المؤرخون هذا التحول بهبوب رياح وعواصف شديدة أوقعت الاضطراب في خيام اليمنيين مما أثار مخاوفهم وجعلهم يعدلون عن هدم الكعبة بل تقربوا لها بالهدي ، وعاد تبــع الى اليمن يجر أذيال الخيبة ليعاقب هؤلاء الهذيليين الذين خدعوه وجعلوه يقوم بهذه المحاولة الفاشلة .

مع ابرهة الى مكة :

رأينا أبرهة وقد ملأته الحماسة وهزه الغضب ، فعزم على أن يهدم الكعبة . وقد استعرضنا آراء كثيرة لعــديد من المؤرخين ، فرأينا من يرى أن أبرهة قد أراد أن يتخلص من الكعبة ليجذب العرب الى كنيسته بصنعاء ليحوز ما تستفيده قريش من قدوم الحجاج في كل سنة . ورأينا من المؤرخين من أشار الى رغبة أبرهة في تنصير العرب جميعاً ، ورأينا منهم من ذهب الى أن أبرهة أراد أن يقود حملة تأديبية لتأديب العرب الذين انتهكوا حرمة كنيسته فلطخوها بالقاذورات والجيف .

ونحن نؤمن بصحة هذه الآراء جميعاً ، ونرى أنها تكاتفت جميعاً على دفع أبرهة للقيام بغزو مكة والشروع في هدم الكعبة ، فكان ما يسميه التاريخ بحملة الفيل أو حرب الفيل .

ولكننا نضيف الى هذه العوامل جميعاً عاملا شخصياً يمس أبرهة وعلاقته بملكه نجاشي الحبشة . فقد أقدم أبرهة على قتل أرباط قائد النجاشي الذي هزم ذا نواس وانتزع بلاد اليمن من العرب الحميريين . وأدى قتل أرباط الى اثارة غضب النجاشي وسخطه على أبرهة ، فبعث يتوعده وأقسم أن يطأ أرض اليمن ويقطع رأس أبرهة .

وخشي أبرهة أن يبر النجاشي بقسمه ، فبعث برسالة يطلب فيها العفو ويبرر ما أقدم عليه ، فقال: أيها الملك ، انما كان أرباط عبدك ، وأنا عبدك ، اختلفنا في أمرك وكلنا طاعة لك ، الا أني كنت أقوى على أمر الحبشة منه ، وأضبط وأسوس ، وقد حلقت رأسي كله حين بلغني قسم الملك ، وبعثت به اليه مع جراب من تراب أرضي ليضعه تحت قدميه فيبر بذلك قسمه » .

ويبدو أن النجاشي رأى أن يخضع لواقع الأمر ، فعفا عن أبرهة ليضمن ولاءه ، وحتى لا يهدد أبرهة وحدة الجيش الحبشي بالانقسام . فكتب النجاشي لابرهة : « اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري » .

خرج أبرهة على رأس الجيش الحبشي قاصداً مكة ، وقد امتطى ظهر فيل كبير اسمه (محمود) وسارت خلفه عدة أفيال على عادة الاحباش ، ولم يكن طريق ابرهة الى مكة سهلا ميسوراً ، فقد قابلته عقبات وصعوبات كان أولها اعتراض رجل من أشراف اليمن يقال له « ذو نفر » ، فقد استنفر قومه ومن أجاب من غيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة وصده عما يريد من هدم بيت الله ، وكان ذو نفر حليفاً لقبيلة قريش ، ولكنه لم يستطع الصمود طويلا أمام جيش أبرهة الكثيف العدد ، الزاخر بالسلاح والفيلة ، فلحقت به الهزيمة ووقع في أيدي الأحباش أسيراً ، وأراد أبرهة أن يقتله فاستعطفه ذو نفر وقال:

أيها الملك لا تقتلني فانه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي . فعفا أبرهة عنه . وحبسه عنده في وثاق(١) .

بلغ جيش أبرهة تهامة اليمن ، فخرج قوم من أهلها اشتهروا بالبـأس والشجاعة ، وهم بنو خثعم ، بقيادة زعيمهم نفيل بن حبيب الخثعمي ، وكان جيشه يتألف من جميع بطون خثعم وأشهرها شهران وناهس ؛واستبسل بنو خثعم في القتال ، ولكن أبرهة نجح أخيراً في هزيمتهم ، وأسر رئيسهم نفيل ، وأراد قتله . وربما كان نفيل محباً للحياة ، فقد استعطف أبرهة وطلب عفوه عنه فقال : أيها الملك ، لا تقتلني فاني دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ، شهران وناهس ، بالسمع والطاعة(٢) . وعفا ابرهة عنه ، وتقدم نفيل ليدل الأحباش الى الطريق الذي يقودهم الى مكة .

مضى الجيش الحبشي في طريقه ، حتى بلغ مدينة الطائف ، أجمل مدن الحجاز وأخصبها ، فخرجت اليه قبيلة ثقيف بزعامة مسعود بن معتب يعلنون لأبرهة ولاءهم وميلهم الى السلام ، وغالوا في استعطاف ابرهة فقالوا : أيها الملك ، انما نحن عبيدك ، سامعون مطيعون ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد — يعنون اللات — انما نريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه (٣) » .

وكان هذا الدليل هو أبو رغال الذي قادهم الى المغمس على مشارف مكة : وهناك وافت المنية أبا رغال . وسخط العرب على أبي رغال هذا فاعتادوا رجم قبره .

كانت منزلة قبيلة ثقيف في الطائف على مثيلة منزلة قريش في مكة .وكانت

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٤٦ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٦ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٧ .

القبيلتان تتنافسان وتتحاسدان . وقد حاولت ثقيف أن تنافس قريشاً في ميدان التجارة ، فكانت لها قوافلها التي ترحل دائماً بين العراق واليمن ، مثلما كانت قبائل قريش ترحل بين الشام واليمن ، وقد بنت ثقيف في الطائف بيت اللات ليكون لها بيتاً مقدساً ككعبة قريش . ولذا لا عجب أن ثقيفاً كانت تتمنى أن ينجح أبرهة في هدم الكعبة والقضاء على مجد قبيلة قريش ، فترث ثقيف مكانتها بين القبائل العربية .

اخفاق حملة الفيل :

خرج أبرهة على رأس الجيش الحبشي قاصداً مكة ، وقد امتطى ظهر فيل كبير اسمه (محمود) ، وخلفه عدة أفيال على عادة الأحباش . نزل أبرهة (المغمس) وهو موضع على ثلثي فرسخ من مكة ، وبعث بفريق من جنده استولى على كثير من أموال قريش ومتاعها ومنها مائتا بعير لعبد المطلب بن هشام زعيم قريش . وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس قتال الأحباش ، فرأوا أن لا طاقة لهم بهم .

ثم بعث أبرهة رسولا الى مكة يدعى حناطة الحيري وقال له : سل عن سيد هذا البلد ثم قل له ان الملك يقول لكم اني لم آت لحربكم ، وانما جئت لهدم البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب ، فلا حاجة لي بدمائكم ، فان لم يرد حربي فبه . ونقل حناطة الحديث الى عبد المطلب فأجاب عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم . فطلب حناطة من عبد المطلب أن يصحبه للقاء أبرهة .

انطلق عبد المطلب مع حناطة يصحبه بعض أبنائه حتى بلغ معسكر أبرهة ، وقام ترجمان يجيد لغتي العرب والأحباش بالترجمة ، فسأل الترجمان عبد المطلب عن حاجته فأجاب : حاجتي الى الملك أن يرد علي مائتي بعير أصابها لي . وتعجب أبرهة من مقال عبدالمطلب وقال للترجمان : قل له كنت أعجبتني

حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير قد أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ فأجاب عبد المطلب : اني أنا رب الابل وان للبيت رباً سيمنعه . فقال أبرهة : ما كان ليمنع عني . فقال عبد المطلب أنت وذاك(١) .

عرض عبد المطلب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت فأبى أبرهة الا أن يمضي في تنفيذ ما قدم من أجله . وعاد عبد المطلب الى مكة غاضباً وهو ينشد :

يا أهل مكة قد وافاكم ملك	مع الفيول على أنيابها الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتائبه	مع الليوث عليها البيض تتقد
يريد كعبتكم والله مانعــــه	كمنع تبع لما جاءها حــــرد

وأمر عبد المطلب قريشاً أن تلحق ببطون الأودية ورؤوس الجبال ، وقدم الابل التي استردها من أبرهة هدياً للكعبة . ووقف بباب الكعبة وهو يقول(٢) :

يا رب لا أرجو لهم سواكـــا	يا رب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكـــا	فامنعهم أن يخربوا قراكـــا

أخفقت المفاوضات بين أبرهة وعبد المطلب ، وأصبح السلام مستحيلا وبقي تحكيم السيف واستعد أبرهة لدخول مكة وهدم الكعبة . وبدأ الجيش الحبشي الرحيل ، وكان بين المكان الذي عسكر الجيش فيه وبين مكة مسيرة ثلاثة أيام .
برك الفيل (محمود) ، فكان اذا دنا منه ساسته لينهضوه نهض معهم ، حتى اذا وجهوه الى مكة برك من جديد . ويجد ساسته بعد ذلك في انهاضه فــلا يبلغون منه شيئاً يحثونه ويؤذونه ويضربونه ، ويبلغون به أقسى ما يهيج الفيل

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٠ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٨ .

فلا ينهض ، حتى اذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن أو نحو الشرق نهض مهرولا ، فاذا أداروا رأسه نحو مكة برك ولم يتقدم(١) .

ثم جاءت خاتمة المأساة ، ويروي المؤرخون القدامى أن الله قد أرسل من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب أحداً منهم الا هلك(٢) . ووصف المؤرخ المسعودي (٣) مصير الجيش فقال : « فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل ، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر مع كل طير ثلاثة أحجار ، فأهلكهم الله عز وجل » :

وخلد القرآن الكريم هذا الحدث التاريخي الكبير ، فنزلت سورة الفيل : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول) .

يرى بعض المؤرخين أن الطير الأبابيل وحجارة السجيل كناية عن وباء اجتاح الجيش الحبشي ، ويذكر ابن اسحق والازرقي أن أول ما عرفت الحصبة والجدري بأرض العرب هذا العام .

هلك معظم جند أبرهة ، ونجت القلة القليلة . وممن نجا انيس سائس الفيل وخادمه وقد لجأ الى مكة وعاشا بها الى أن شاخا وعميا ورآهما السيدة عائشة أم المؤمنين يتسولان في شوارع مكة . أما أبرهة فقد مسه حجر فصرع : وظهر على جسمه بلاء عظيم ، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط حتى مات .

---

(١) على هامش السيرة ص ١٤٦ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٢ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٨ .

نتائج إخفاق حملة الفيل :

كان قدوم جيش ابرهة الى مكة على هذه الصورة التي شهدناها حدثاً خطيراً ، وتجربة قاسية تعرض لها عبد المطلب وقريش وأهل مكة . وتطلع العرب الى ما تخبئه الأيام ، ولكن الله سبحانه وتعالى دافع عن بيته الحرام ، وتصرف عبد المطلب بحكمة وحسن تدبير ، فجنب قومه الأخطار والمهالك : ولذا لا عجب أن ارتفع ذكره وعظم شأنه بين العرب جميعاً .

تحدث المؤرخ (براون) (١) عن غزو الاحباش للكعبة فقال : ان عام الفيل يعتبر فاتحة عصر جديد في تاريخ العرب القومي . وتحدث الدكتور هيكل(٢) عن نتائج هذه الحملة فقال : زاد هذا الحادث الفذ العجيب في مكانة مكة الدينية . وزاد تبعاً لذلك ، في مكانتها التجارية ، وزاد أهلها انصرافاً عن التفكير في شيء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة ، ومحاربة كل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها وزاد المكيين حرصاً على مكانة مدينتهم ما كانت تتيحه لهم من رخاء وترف على أوسع صورة يستطيع الذهن تصورها للترف في هذه الجهة الصحراوية الجرداء .

وعادت الحياة الهانئة الوادعة الى مكة بعد هذا الحادث ، فأخذ أهلها يجلسون في كل صباح ومساء الى جانب نيف وثلاثمائة صنم ، يقص بعضهم على بعض أخبار البادية وما يقع في مدن الحجاز والحيرة والغساسنة .

أعظمت العرب قريشاً وقالوا : « الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم » فجعلوا يقولون في ذلك الاشعار ، قبل نزول السورة الكريمة بأربعين عاماً . وجاءت هذه السورة لتأييد التاريخ واظهار محبة الله للبيت الحرام حتى قبل البعثة المحمدية ، فقد أمر الله ابراهيم واسماعيل ببناء الكعبة لاحياء كلمة

---

(١) Lit. Hist. of Persia

(٢) حياة محمد ص ٦٤ .

التوحيد التي يعيدها محمد ، وقد حمى الله الكعبة لتكون بعد أربعين عاماً كعبة المسلمين وقبلتهم (١) .

كان اخفاق حملة الفيل معجزة كبرى ، وشاء الله أن يمعن في الانتقام من الأحباش لاقدامهم على محاولة هدم الكعبة ، فما لبث أن أزال حكمهم من بلاد اليمن ، فخلت الجزيرة العربية من آثار النفوذ الحبشي .

بعد فترة وجيزة من هزيمة أبرهة ، قامت حركة وطنية في دولة حمير لتخليص اليمن من حكم الأحباش وكان على رأس هذه الحركة سيف بن ذي يزن الحميري الذي سعى في انقاذ قومه من الأحباش ، فسار الى ملك الحيرة العربي ليتوسط له لدى كسرى أنوشروان ليمده بقوة يستعين بها في اخراج الاحباش من بلاد اليمن وكان العرب المسيحيون في تلك البلاد يتطلعون الى الحماية والرعاية من الروم ، كما كان اليهود والوثنيون من العرب يلوذون بالفرس ويطلبون العون منهم. فلما استنجد سيف بن ذي يزن بكسرى ، أمده بحملة سنة ٥٧٥ م بقيادة وهرز وقد تغلب القائد على الأحباش في اليمن بقيادة مسروق بن أبرهة ، وأنقذ وحدة البلاد من حكمهم البغيض(٢) .

فرح عبد المطلب لخلاص بلاد اليمن ، والجزيرة العربية كلها ، من النفوذ الحبشي ، وشعر بالحبور اذ تولى أمر بلاد اليمن عربي هو سيف بن ذي يزن ، وعبر عبد المطلب عن حبوره وسروره ، بأن رأس وفداً من وجوه قريش ، وخرج بهم من مكة الى بلاد اليمن لتهنئة ابن ذي يزن بانتصاره على الأحباش وتوليه السلطة في بلاده ، وكان من أبرز هؤلاء الوجوه أمية بن عبد شمس وخويلد بن أسد ، وألقى عبد المطلب خطبة طويلة في حضرة ابن ذي يزن ، ورد عليه هذا بخطبة مثلها .

رحب ابن ذي يزن بعبد المطلب وقال له : مرحباً بابن أختنا . فقد كانت

---

(١) ثورة الاسلام ص ٢٧٢ .
(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٢٨ .

سلمى أم عبد المطلب من الخزرج ، وهم من اليمن من سبأ ، وكان سيف من حمير من سبأ .

كان اخفاق حملة الفيل محوراً لنشاط أدبي كبير ، فقد اتخذه كثير من الشعراء موضوعاً لقصائد عصماء . نذكر منهم عبدالله بن الزبعرى ، وأبو قيس بن الأسلت ، وطالب ابن أبي طالب بن عبد المطلب وأبو الصلت بن ربيعة الثقفي ، والفرزدق ، وعبدالله بن قيس الرقيات ، وغيرهم .

أشار علماء اللغة المسلمون والمستشرقون الى عدد من الالفاظ العربية ذكروا أنها من أصل حبشي ، وهي من الألفاظ التي كانت مستعملة معروفة قبل الاسلام ، وقد ورد بعضها في الشعر الجاهلي (١) .

خلفت حملة أبرهة فلولا هاربة مما لحق بجيش أبرهة . لم تر بدا من الحياة في مكة . فيذكر الأزرقي(٢) : « وأقام بمكة فلال من الحبش وبعض من ضمه العسكر يعتملون ويزرعون لمكة » .

ولما ظهر الاسلام بمكة ، أسرع عدد وافر من هؤلاء الاحباش الى اعتناقه : فجر ذلك عليهم اضطهاد أوليائهم وقبائلهم ، كما كان من أسباب اشتداد الخصومة بين الرسول وقريش . من هذه الطبقة المغلوبة على أمرها أبو رافع : وبلال ، وعامر بن فهيرة ، ووحشي قاتل حمزة يوم أحد ، وصؤاب حامل لواء قريش في ذلك اليوم كل هؤلاء كانوا أرقاء قد نص في كتب السيرة على ساداتهم وعلى طريقة تحرر بعضهم من الرق (٣) .

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ٦ ص ١٩٣ .
(٢) الازرقي : أخبار مكة ص ٩٧ .
(٣) العبادي : صور من التاريخ الاسلامي ص ٢١ .

كان اخفاق أبرهة حادثة تاريخية ، وفاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة ، حتى انهم أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم . فقد مهدت السبيل لقبول الدعوة الاسلامية والقيام بنصرتها ، ونشر دين توحيد جديد هو دين الحنفية ، اذ لو أتيح لهذا الجيش الحبشي النصر والظفر لتغير وجه التاريخ ، وانتشر الدين المسيحي بين العرب ، وانصرف الناس عن مكة الى صنعاء (١) .

ولد الرسول صلى الله عليه وسلم في عام الفيل : وتاريخه ٥٧٠ م . وحملة الفيل هي « حرب السبعين » في جزيرة العرب التي باء فيها الأحباش واليمنيون بالخسران . وكان عام النهضة بمولد نبي المستقبل ، وفوجيء عبد المطلب في هذا العام بكوارث عدة منها موت ولده عبدالله ، وهجوم الأحباش على وطنه ، وانزعاجه بضياع ابله التي كافح لدى أبرهة في استردادها حتى أعادها الى قوافل الميرة . ولكن الله عز وجل عوضه بمولد حفيده الكريم محمد عن هذه الكوارث جميعاً . فكان مولده ايذاناً بشروق شمس الهدى في الجزيرة العربية.

نقد وتحليل لموقف عبد المطلب :

اتخذ عبد المطلب سياسة الدفاع بدلا من الهجوم ، وفاوض أبرهة من أجل الجلاء عن مكة والعودة من حيث أتى ، ولم يبادره بالهجوم أو القتال . فهل أتت هذه السياسة بالفائدة المرجوة منها ؟ ونستطيع أن نقول ان عبد المطلب كان حكيماً في اتخاذه هذه السياسة ، بل انها كانت السياسة الوحيدة التي يمكن انتهاجها في مثل هذا الموقف الحرج .

كان الجيش الحبشي كثيف العدد ، يزخر بالسلاح والعتاد ، وقد بذل أبرهة جهداً كبيراً في اعداده وامداده بالذخائر والتموين ، واستعان بما وجده في بلاد اليمن ، وبما ارسله النجاشي له من الحبشة ، فقد بعث له بالرجال

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٥١ .

والسلاح والفيلة . وهو جيش منظم ، اعتاد الحرب ، وخبر فنون القتال ، وهو الجيش الذي نجح في القضاء على المملكة الحميرية ، وهو جيش الاحتلال الذي يستعين به الأحباش لتدعيم الاستعمار الحبشي في بلاد اليمن .

أدرك أهل مكة أنهم عاجزون عن مواجهة أبرهة ، اذ أن ذلك يعرضهم ويعرض مكة للهلاك . وكانت قبيلة قريش قبيلة تجارية ولم تكن قبيلة حربية ، بل انتهجت سياسة سلمية في الجزيرة العربية ، لتضمن سلامة قوافلها التجارية ذات الأهمية الاقتصادية الكبيرة ، وقد وصف الجاحظ قبيلة قريش وعدد مزاياها ، فوصفها بالكرم والسخاء ، والعقل والدهاء ، والسياسة والتدبير ، ولكنه لم يتحدث عن ميلها للحرب أو الغزو وتحدث المؤرخ كرد علي عن قريش فقال : أخذت قريش تضرب في البلاد الى قيصر بالروم والنجاشي بالحبشة ، والمقوقس بمصر وكسرى بالعراق تجعل من أرضهم متجراً لها ، ذلك لأن قريشاً زهدت منذ زمن بعيد في الغصوب ، فلم يبق لهم مكسبة سوى التجارة ، وبالتجارة عرفوا ما جاورهم من الأمم والشعوب وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء .

أيقنت قريش بعدم جدوى القتال لتفوق الجيش الحبشي في العدد والسلاح والامدادات . ويؤكد المؤرخون القدامى أن قريشاً رغبت في أول الأمر في القتال ولكنها غلبت الحكمة والعقل ، فيروي الطبري(١) : « فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله ، ورأوا أن لا طاقة لهم به ، وأدرك عبدالمطلب بحكمته وحسن تدبيره أنه عاجز عن صد هذه الاعداد الكبيرة من الجند الأحباش ، بل اعترف بذلك لرسول أبرهة اليه فقال : «والله ما نريد حربه (أي أبرهة) وما لنا بذلك من طاقة » .

كانت مدينة مكة مقدسة اذ بها بيت الله الحرام ، ولذا حرص العرب على

(١) الطبري ج ٢ ص ١١١ .

أن يسود السلام هذه المدينة ، وأن يجنبوها الحرب والقتال . وقد جعل عبد المطلب مكة « مدينة مفتوحة » وهي السياسة التي شهدناها في بعض مدن أوربا في الحرب العالمية الثانية، فقد أصبحت هذه المدن مدناً مفتوحة لأهميتها الحضارية وللحفاظ على ما فيها من تراث بشري . وقد أعلن أبرهة أنه لم يقدم للحرب وحدد أهدافه بهدم الكعبة فقال لعبد المطلب : « اني لم آت لحرمكم ، انما جئت لهدم البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب ، فلا حاجة الي بدمائكم » . ولذا رأى عبد المطلب ألا يكون البادىء بالقتال ، كما أن أبرهة كان هو البادىء بطلب الدخول في مفاوضات مع عبد المطلب ، ورأى عبد المطلب أن ينسحب لدعوة أبرهة ، فقد تؤدي هذه المفاوضات الى تجنب مكة شر القتال .

ولم يقف عبد المطلب موقفاً سلبياً من الهجوم الحبشي ، فقد لجأ الى وسيلتين لحماية أهل مكة ، بعد أن رأى عدم جدوى الالتجاء الى السلاح . أولها وسيلة دفاعية قد تكون أكثر جدوى من الهجوم ، فقد « أمر قريشاً أن تلحق ببطون الأودية ورؤوس الجبال»(١). أما الوسيلة الثانية فهي اغراء أبرهة بالمال والذهب فقد عرض عليه ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت : ولكن أبرهة رفض هذه العروض (٢) .

أسست قريش في مكةوحول الكعبة حكومة جمهورية صغيرة ، ولما كانت قريش تعتمد في حياتها على التجارة فقد انتهجت سياسة سلام وصداقة مع جميع الدول والقبائل ، وعملت على حفظ التوازن بين سائر القوى العربية ، وفض المشاكل بالطرق السلمية .

جعل الأحباش الفيلة في مقدمة جيشهم ، وكانت هذه الحيوانات تثير مخاوف العرب وتجعلهم يترددون في مواجهتها . والتاريخ يعيد نفسه ، فقد

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ١١١ .

استعان الفرس خلال الفتوحات الاسلامية لأراضي الدولة الفارسية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب بالفيلة ، فقد أراد الفرس أن يحيلوا هزائمهم نصراً فيبثوا الرعب في قلوب الجند المسلمين ، فجعلوا الفيلة في مقدمة جيوشهم ، فلما رأتها خيول المسلمين أجفلت ، فقد غطى الفرس الفيلة بسعف النخيل وعلقوا عليها الأجراس . وتقدم قائد الجيش الاسلامي أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، فهجم عليه فيل أبيض ، فوجه أبو عبيد اله ضربة بسيفه تلقاها الفيل بقدمه ، وما لبث الفيل أن أوقع أبا عبيد أرضاً وداسه بأقدامه . ثم نجح القائد عبدالله بن مراد الثقفي أن يقود المسلمين ويعبر بهم نهر الفرات فنجوا من الفيلة(١) .

أراد عبد المطلب أن يضمن سلامة الكعبة بيت الله الحرام ، وكان اشتباكه مع الأحباش في حرب يعرضها للتهدم وهو الغرض الذي قدم الأحباش من أجله . والتاريخ يروي كيف أدى قتال عبدالله بن الزبير للقائدين الأمويين الحصين ابن نمير في عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية ، والحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، الى تصدع أجزاء من الكعبة . وكان ابن الزبير قد لاذ بالكعبة وظن أن الأمويين سيحجمون عن قتاله عند الكعبة لحرمتها ، وسمى نفسه (العائذ بالبيت) (٢) .

كما أن مكة وموقعها الجغرافي وطبيعتها لا تجعلها تصلح لتكون ساحة قتال فالجبال تحيط بها من معظم جهاتها ، وتجعل الكر والفر عسيراً ، كما كانت مكة فقيرة في موارد مياهها وامداداتها وتموينها . مما يجعلها لا تحتمل حصاراً طويلا أو حرباً عامة .

علم عبد المطلب برحلة أبرهة من صنعاء باليمن الى مكة ، فقد نجح في الحاق الهزيمة بذي نفر وقومه وبني خثعم في تهامة اليمن ، وأسر زعيمهم نفيل بن

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ٦٣١ ، انظر كتابنا (المختار الثقفي) ص ١٨ .
(٢) انظر كتابنا (عبد الله بن الزبير) سلسلة أعلام العرب .

حبيب الخثعمي ، واضطر ذو نفر ونفيل الى طلب الرحمة والعفو من أبرهة . كما علم عبد المطلب بموقف عرب ثقيف بالطائف فقد اتخذوا موقفاً عدائياً وشجعوا أبرهة على غزو مكة وخرجوا يدلونه الى الطريق . ولذا رأى عبد المطلب أن يستفيد من تجارب الآخرين .

وكان عبد المطلب والقرشيون واثقين من حدوث معجزة تدفع خطر الأحباش عن مكة وتنقذ الكعبة من هجوم أبرهة . وتجلى هذا واضحاً في قول عبد المطلب لأبرهة : « وان للبيت رباً سيمنعه » . وفي توجهه الى الله تعالى بالدعاء قائلا :

يا رب لا أرجو لهم سواكا   يا رب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا   فامنعهم أن يخربوا قراكا

وكان عبد المطلب على حق في انتظار هذه المعجزة ، فقد مر القرشيون بتجارب مماثلة ، وقد رأينا كيف حاول تبابعة اليمن الخلاص من الكعبة ، اما بهدمها أو الاستحواذ عليها . ورأينا كيف حاول (تبع) هدم الكعبة ، ولكن الله أنقذ بيته الحرام ، فقد هبت عواصف ورياح على المعسكر التبعي ، كفت أهل مكة شر القتال .

وقد أنشد عبد المطلب بعد اخفاق أبرهة أبياتاً من الشعر تحدث فيها عن حماية الله لبيته الحرام ، وذكر ما حدث لتبع الحميري اليمني ، ثم لأبرهة الأشرم القائد الحبشي ، فقال(١) :

أيها الداعي لقد اسمعتني   ثم ما بي عن نداكم من صمم
ان للبيت لرباً مانعاً   من يرده بأثام يصطلم
رامه تبع فيمن جندت   حمير والحي من آل قدم
فانثنى عنه وفي أوداجه   جارح أمسك منه بالكظم
قلت والأشرم تردى خيله   ان ذا الأشرم غر بالحرم

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٩ .

٩ ــ نذر عند الكعبة

نذر عبد المطلب :

خرج عبد المطلب ليحفر زمزم وليس معه سوى ابنه الحارث ، وكان العمل شاقاً مؤلماً ، تحمله الأب والابن ، في صبر وقوة واحتمال ، حتى أتماه وبلغا به شرفاً ومجداً عظيماً . ثم كان نزاع قريش له فيما عثر عليه من ذخائر . وأدرك عبد المطلب أن قريشاً ما كانت لتنازعه الا لضعفه لقلة أولاده ، فرأى أن يعاود الزواج لينجب البنين فيكونوا عصباً له يعضدونه ويشدون أزره . ونذر عبد المطلب « لئن ولد له عشرة نفر ، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة » .

ومضت السنون ، وتحققت أمنية عبد المطلب ، وأصبح أولاده عشرة وأدرك عبد المطلب أنه آن أوان الوفاء بالنذر ، ودعا أبناءه اليه وأخبرهم فأبدوا طاعتهم ورضوخهم . ولكن من منهم يكون الذبيح ؟ وسأل أبناؤه : كيف نصنع ؟ فقال عبد المطلب : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتوني . ففعلوا ، ثم أتوه ، فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة ، وكان هبل على بئر في جوف الكعبة ، وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة .

وكان عند هبل قداح سبعة ، كل قدح منها فيه كتاب ، فقدح فيه (العقل) أي الدية وقدح ثان فيه (نعم) للأمر اذا أرادوه ، يضرب به في القداح ،

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٧ .

فان خرج قدح (نعم) عملوا به . وقدح ثالث فيه (لا) اذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح ، فان خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر ، وقدح فيه (منكم) ، وقدح فيه (ملصق) ، وقدح فيه (من غيركم) وقدح فيه (المياه) اذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح ، وفيها ذلك القدح ، فحيثما خرج عملوا به ، وكانوا اذا أرادوا أن يختنوا غلاماً ، أو ينكحوا منكحاً ، أو يدفنوا ميتاً ، أو شكوا في نسب أحدهم ، ذهبوا به الى هبل ، وأعطوا صاحب القداح مائة درهم وجزروا ليضرب لهم بالقداح .

قال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه ، واخبره بنذره الذي نذر ، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه .

ضرب صاحب القداح ، فخرج القدح على عبدالله ، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ، ثم أقبل عبد الله الى أساف ونائلة ليذبحه ، فقامت اليه قريش من أنديتها ، فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه . فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه : لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا . وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة ، وكان عبدالله ابن اخت القوم : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه فان كان فداؤه . وقالت له قريش وبنوه : لا تفعل ، وانطلق به الى الحجاز فان به عرافة لها تابع ، فسلها ، ثم أنت على رأس أمرك ، ان أمرتك تذبحه ذبحته وان أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته .

فانطلقوا جميعاً حتى قدموا المدينة ، فوجدوا العرافة(١) في خيبر فركبوا حتى جاءوها ، فسألوها وقص عبد المطلب عليها خبره وخبر ابنه ، وما أراد به ، ونذره فيه ، فقالت لهم : ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله :

---

(١) تذكر بعض المصادر أن اسم العرافة (قطبه) بينما تذكر مصادر أخرى أن اسمها (سجاح) .

فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها ، قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها ، فقالت لهم : قد جاء في الخبر ، كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الابل . وكانت الدية في ذلك الحين على ما جرى العرف به عشرة من الابل فقالت العرافة : فارجعوا الى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشراً من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابل ، فانحروها عنه ، فقد رضي ربكم ، ونجا ابنكم .

فخرجوا حتى قدموا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر ، قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبدالله وعشراً من الابل ، وعبد المطلب قائم عند هبل يدعو الله عز وجل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبدالله ، فزادوا عشراً من الابل ، فبلغت الابل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبدالله فزادوا عشراً من الابل ، فبلغت الابل ثلاثين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبدالله ، فأخذوا يزيدون الابل عشراً عشراً ، وفي كل مرة يقوم عبد المطلب يدعو الله ، حتى بلغ عدد الابل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الابل .

فقالت قريش ومن حضر من الناس : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب . فقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، فضربوا على عبدالله وعلى الابل ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، فخرج القدح على الابل

فأعادوا الكرة مرتين، وفي كل مرة يخرج القدح على الابل ، فنحرت الابل، ثم تركت ، لا يصد عنها انسان ولا يمنع(١) .

وهكذا كتب الله الحياة لعبد الله بن عبد المطلب ، ليكون والد الرسول العظيم محمد خاتم الانبياء وكانت هذه هي أول مرة يفتدى بها عربي بمثل هذا العدد الكبير من الابل ، ولذا شاعت القصة بين العرب جميعاً ، ترويها وترددها في مجالسهم ومجامعهم .

قصة زواج عبدالله بن عبد المطلب :

اطمأنت نفس عبد المطلب ، فقد فدى ابنه الحبيب عبدالله بمائة من الابل وكان عبد الله أحب أبناء عبدالمطلب اليه(٢) ، وان لم يكن أصغرهم سناً ، كما تروي المصادر . فابن هشام يذكر أنه كان « أصغر بني أبيه(٣) » ، وربما يريد ابن هشام أن يذكر أن عبدالله كان أصغر أولاد أبيه حين أراد نحره والوفاء بالنذر ، فالمعروف أن حمزة بن عبد المطلب كان أصغر من عبدالله ، والعباس ابن عبد المطلب كان أصغر من حمزة . وقد روت المصادر أن العباس قال : اذكر أن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها، فجيء بي حتى نظرت اليه ، وجعل النسوة يقلن لي : قبل أخاك ، قبل أخاك، فقبلته . وفي هذا دليل على أن عبدالله لم يكن أصغر أولاد عبد المطلب(٤).

انصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله ، فمر به على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، وهي أخت ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد العزى يقال لها أم قتال بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى وهي عند الكعبة ،

(١) سيرة ابن هشام ص ١٥١ – ١٥٥ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٢٧ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٣ .
(٤) الروض الأنف .

فقالت له حين نظرت في وجهه : أين تذهب يا عبدالله ؟ قال : مع أبي . قالت : لك مثل الابل التي نحرت عنك ، وقع عليّ الآن . قال : أنا مع أبي ، ولا أستطيع خلافه ، ولا فراقه(١) .

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ، وهو يومئذ سيّد بني زهرة ، نسباً وشرفاً ، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً(٢) .

روى الطبري(٣) ان عبد الله دخل على زوجته آمنة حين ملكها مكانه فوقع عليها فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت . فقال لها : ما لك لا تعرضين علي اليوم ما كنت عرضت عليّ بالأمس ؟ فقالت له : فارقك النور الذي كان معك بالأمس ، فليس لي بك اليوم حاجة . وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصر واتبع الكتب حتى أدرك فكان فيما طلب من ذلك أنه كائن لهذه الأمة نبي من بني اسماعيل .

فتروي المصادر التاريخية أن كثيراً من الفتيات كانت تطمع في الزواج من عبدالله بن عبد المطلب فقد كان كما وصفه الطبري « اجمل رجال قريش » ، ومن هؤلاء الفتيات فاطمة بنت مرة الخثعمية .

وفاة عبدالله بن عبد المطلب :

كانت قريش قبيلة تجارية ، تعتمد في مواردها وحياتها على ما تدره رحلاتها

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٦ والطبري ج ٢ ص ٥ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٥٦ .
(٣) الطبري ج ٢ ص ٥ .

التجارية الى كل مكان في العالم القديم وخاصة على رحلتي الشتاء والصيف الى اليمن والشام . ولذا كان الآباء يحرصون على تدريب أبنائهم على الخروج مع هذه القوافل منذ شبابهم الباكر .

فرح عبد المطلب اذ أنقذ ابنه عبدالله اذ افتداه بمائة من الابل ، وتضاعف سروره بعد زفاف عبد الله لآمنة بنت وهب . وأصبح عبدالله رب أسرة : وعليه أن يبدأ حياته العملية ، ويشترك في نشاط قريش التجاري ، ويخرج في قوافلها ، ولذا أخذ يتهيأ للخروج في قافلة قريش ، منضماً الى اخوته من بني عبد المطلب ، تاركاً آمنة في رعاية أبيه .

وكان عبدالله بعد زفافه قد أقام مع زوجته آمنة في بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب ، حيث تم الزواج في بيت العروس . فلما انتقل واياها الى منازل بني عبد المطلب لم يقم معها طويلا ، اذ خرج في تجارة الى الشام وتركها حاملا . وكان التمر يمثل معظم ما تحمله هذه القافلة من تجارة (١) .

وكانت آمنة قبل زواجها في كنف عمها وهيب ، فلما زفت الى عبدالله أصبحت في كنف زوجها ، حتى اذا سافر عبدالله ، وأصبحت وحيدة محزونة ، أخذ عبد المطلب يتردد عليها لزيارتها ، ويطلب من زوجته هالة أن تزور آمنة لتؤنسها في وحدتها وتخفف عنها آلام فراق زوجها .

ثم جاء أوان عودة القافلة ، وبدأت قريش تستعد لاستقبالها وقد عادت بالخير العميم ، وأخذت آمنة ترقب عودة زوجها ، وخف شباب قريش يلقون القافلة قبل أن تبلغ الحرم ، وخرج اخوة عبدالله فيمن خرج ، ولكنهم عادوا وقد بدا الحزن والأسى على وجوههم ، حتى اذا سألهم عبد المطلب عما حدث ، أنبأوه بمرض عبد الله وتخلفه في يثرب ليمرض عند أخواله من بني النجار . وتألم عبد المطلب وخشي من أثر الصدمة على آمنة وحملها ، فندب

---

(١) الطبري جـ ٢ ص ٧ .

أكبر أبنائه الحارث ليرحل الى يثرب في الحال ليباشر تمريض عبدالله . وقضى الجميع أياماً قلقة يتلهفون فيها على سماع نبأ عن مريضهم الحبيب ، ولكـــن الحارث عاد الى القوم ينعى لهم عبدالله . فقد رحل الحارث الى يثرب وهناك علم أن عبد الله مات ودفن بها بعد شهر من رحيل القافلة الى مكة .

وهكذا قضى عبدالله نحبه في نصف العقد الثالث ، وهو في ريعان شبابه وميعة صباه ، ولما يتمتع بشيء من مباهج الحياة سوى زفافه الى عروسه وقضاء شهرين معها . ودفن عبدالله في بيت « تابعة » في حي بني عدي بيثرب ، ولا يزال ابنه محمد حملا مستكناً . وكان لنعيه أسوأ الأثر في نفس عبد المطلب ، وقلب آمنة ، ووضعا عزاءهما فيمن خلفه عبدالله جنيناً في بطن آمنة .

* * *

١٠ ــ بشرى بمولد الهدى عند الكعبة

مولد الهدى :

قضت آمنة فترة الحمل دامعة باكية ، لا يعزيها سوى ترقّب رؤية المولود المنتظر . ولكن آمنة وان كانت قد فقدت حنان الزوج ، فقد وجدت عند حميها عبدالمطلب الرعاية والعناية ، وان كان المصاب واحداً ، وخاصة أن عبدالمطلب قد تقدمت به السنون ، فوهنت صحته ، وضعف بصره .

ثم كان مولد الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة ، في دار لابن عمه عقيل ابن أبي طالب ، وقد توارثها أبناء عقيل حتى باعوها لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ، فأدخلها في داره وسماها البيضاء . أما القابلة التي ولد محمد صلى الله عليه وسلم على يديها ، فاسمها الشفاء ، وقد قالت : « لما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على يدي » . وحضنته أم أيمن فكانت مربيته الأولى فأرضعته أمه آمنة بضعة أيام ، ثم أرضعته ثويبة جارية عمه أبي لهب ، الذي أصبح بعد البعثة أبغض الناس الى الله ورسوله .

بعثت آمنة الى عبد المطلب تبشره بمولد حفيده ، وكان عندما وصله النبأ السار يطوف بالكعبة فهرع الى آمنة ، فقالت آمنة له : « انه قد ولد لك غلام ، فأته فانظر اليه . فأتاه فنظر اليه وحدثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه ، وما أمرت به أن تسميه ، فيزعمون أن عبدالمطلب أخذه ، فدخل به الكعبة ، فقام يدعو الله ، ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به الى أمه ، فدفعه اليها : والتمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرضعاء» (١) .

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٦٠ .

مرض المولود ثلاثة أيام ثم عوفي . وأعتق أبو لهب جاريته ثويبة حين بشرته بمولد محمد صلى الله عليه وسلم . وكانت رضاعة محمد من ثويبة أياماً قليلة بلبن ابنها مسروح ، وكانت ثويبة ظئراً محترفة أرضعت بضعة أطفال منهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وأبو سالمة بن عبد الأسد ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء اخوته في الرضاع ، ولم يثبت أنها أسلمت سواء هي أو ابنها مسروح . ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يصلها من المدينة ، ولما فتح مكة سأل عنها وعن ابنها فعلم أنهما ماتا .

ينهي المؤرخون والنسابون نسب محمد الى اسماعيل وابراهيم ثم الى نوح وآدم عليهم السلام . ولكن الرسول نهى عن أن يتجاوز النسب عن معد(١) .

اختلف المؤرخون في العام الذي ولد محمد صلى الله عليه وسلم فيه ، فمعظمهم يذهب الى أنه عام الفيل (٥٧٠ ميلادية) . ويذكر ابن عباس أن الرسول ولد في عام الفيل . ويقول آخرون انه ولد قبل الفيل بخمس عشرة سنة . ويذهب غير هؤلاء إلى انه ولد بعد الفيل بأيام وبأشهر ، وبسنين يقدرها قوم ثلاثين سنة ويقدرها قوم بسبعين .

واختلف المؤرخون أيضاً في الشهر الذي ولد فيه الرسول ، وان كانت كثرتهم تذهب الى أنه ولد في شهر ربيع الأول . وقيل : ولد في المحرم ، وقيل : ولد في صفر والبعض يرجح شهر رجب ، على حين يرجح آخرون شهر رمضان .

كذلك اختلف في تاريخ اليوم من الشهر الذي ولد الرسول فيه ، فقيل : « ولد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول ، وقيل لثمان ليال ، وقيل لتسع ».

---

(١) محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ابن معد .

ولكن معظم الآراء تتفق على أن الرسول الكريم قد ولد في ثاني عشر من شهر ربيع الأول .

وكذلك اختلف في الوقت الذي ولد فيه الرسول ، أكان نهاراً أم ليلا : كما اختلف في مكان ولادته في مدينة مكة(١) .

ذكر المؤرخ ابن هشام(٢) في سيرته : « ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل » .

وقال الزبير : كان مولده في رمضان . وهذا القول موافق لقول من قال ان أمه حملت به في أيام التشريق . ويذكرون أن الفيل جاء مكة في المحرم وأنه صلى الله عليه وسلم ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يوماً(٣) .

ويحدد المؤرخ المسعودي (٤) يوم مولد الرسول فيقول : «والذي صح من مولده عليه الصلاة والسلام أنه كان بعد قدوم أصحاب الفيل مكة بخمسين يوماً ، وكان قدومهم مكة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم في سنة ثمانمائة واثنين وثمانين من عهد ذي القرنين ، وكان قدوم أبرهة مكة لسبع عشر خلت من المحرم وليست عشر ومائتين من تاريخ العرب ، الذي أول حجة الغدر ولسنة أربعين من ملك كسرى أنو شروان ، وكان مولده عليه الصلاة والسلام لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة » .

ويرى (كوسان دي بارسفال) أن ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في اليوم الخامس والخمسين بعد هزيمة أبرهة الأشرم في موقعة الفيل . وقد

(١) هيكل : حياة محمد ص ٧ .
(٢) ابن هشام جـ ١ ص ١٥٨ .
(٣) انظر الروض الأنف والطبقات الكبرى لابن سعد وتاريخ الطبري .
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٨٠ .

حقق المرحوم (محمود الفلكي المصري) تاريخ مولد الرسول فقال انه ولد في صباح اليوم التاسع من ربيع الأول من سنة ٥٧١ ميلادية ولا غرابة في الجمع بين الشهر العربي والسنة المسيحية ، لأن التاريخ الهجري لم يبدأ به الا بعد ذلك . ولكن الأشهر العربية كانت معروفة . والثابت أيضاً أن أمه حملت به في الربيع ووضعته في الخريف ، وقد دلت البحوث الحديثة أن الخريف فصل مواليد النوابغ (١) .

تحدث قيس بن مخزومة عن مولد الرسول الكريم فقال : « ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، فنحن لدان » . كما تحدث حسان ابن ثابت شاعر الرسول ، عن ذكرياته يوم مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال : « والله اني لغلام يفع ، ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب : يا معشر يهود ، حتى اذا اجتمعوا اليه قالوا له : ويلك ، ما لك ؟ قال : طلع الليلة نجم احمد الذي ولد به» (٢).

لا يعرف في العرب من تسمى باسم (محمد) قبل الرسول صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة ، طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم وبقرب زمانه وأنه يبعث في الحجاز ، أن يكون ولداً لهم . وهم محمد بن سفيان بن مجاشع ، جد الفرزدق الشاعر ، والآخر : محمد بن أحيحة بن الجلاح بن الحريش ، والآخر محمد بن حمران بن ربيعة . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عندهم علم من الكتاب الأول . فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر كل واحد منهم ان ولد له ذكر أن يسميه محمداً ففعلوا ذلك .

---

(١) ثورة الاسلام ص ٢٨١ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٥٩ .

وفي سابع يوم لمولد الرسول الكريم ، أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ودعا رجالا من قريش ، فحضروا وطعموا . فلما علموا منه أنه أسمى الطفل محمداً سألوه لم رغب عن أسماء آبائه ؟ فقال : أردت أن يكون محموداً في السماء لله والارض لخلقه .

روت المصادر القديمة كثيراً من الروايات ، ولا نرى بأساً من سرد بعضها، فتذكر هذه الروايات أن آمنة لم تتحمل أي مشقة في حمل الرسول أو ولادته ، وقد انبعثت ليلة مولد الرسول أنوار عظيمة أضاءت السماء ، وارتجت السماء والارض ، لمولده . وغاضت مياه بحيرة ساوى وجفت جوانبها ، بينما فاضت مياه دجلة فأغرقت الاراضي المحيطة بها . واهتز عرش كسرى وسقط كثير من أبراجه . وفي تلك الليلة رأى قاضي فارس (أو الموبذان خادم النار الكبير عند الفرس في رواية أخرى) في حلمه أن فرساً عربية قد صرعت جملا شرساً ، وقص حلمه في الصباح على كاهن فارس ، ففسره بأن بلاد الفرس ستهدد بخطر قادم من بلاد العرب .

وفي تلك الليلة الخالدة ، انطفأت نيران زرادشت المقدسة التي ظلت تشتعل دون توقف منذ آلاف السنين ، وسقطت جميع أصنام العالم على الأرض ، وطاردت الملائكة الشياطين الذين يسكنون النجوم ، وأرغموهم هم وزعيمهم ابليس على أن يسكنوا قاع البحر(١) .

وقيل أيضاً أن محمداً ولد عند وجود المشتري ، وهو دليل السعد والمجد ، وأن سنة ولادته كانت سنة الفتح والخير ، لأن قريشاً كانت قبل ذلك في جدب وضيق ، فاخضرت الارض وأثمرت الاشجار وعم الخير العميم أرجاء مكة .

---

(١) انظر كتاب حياة محمد لارفنج من ترجمتنا ص ٣٢ .

١١ ـ الحج الى الكعبة قبل الاسلام

الحج في الأشهر الحرم :

كان العرب قبل الاسلام يحجون الى الكعبة من جميع أرجاء الجزيرة العربية وشاركهم في الحج أمم أخرى كالهنود والفرس والصابئة وبعض اليهود . وكانت أشهر الحج عندهم حرماً ، وكانوا يحرمون الشهر الذي يكون فيه الحج ، وهو ذو الحجة والذي قبله والذي بعده . وكانوا يحرمون شهر رجب أيضاً ، ويسمونه شهر الله الأصم ، أي الذي لا يسمع فيه قعقعة السلاح . فكانوا في هذه الشهور الاربعة يلقون السلاح ولا يغزو بعضهم بعضاً(١) .

وحكمة جعل ثلاثة أشهر للحج ، مع أن موسمه وأسواقه لا تستغرق الا شهراً وأياماً واضحة ، فالمسافات الشاسعة التي يضطر الحاج الى قطعها من الانحاء القاصية تحتاج الى مدة كافية للاياب والذهاب ، ولعل في هذا دليلا على اشتراك العرب من مختلف أرجاء الجزيرة العربية وأطرافها في الحج وشهودهم موسمه وأسواقه وعدم اقتصار ذلك على عرب الحجاز .

لم يكن الذين يشهدون موسم الحج ويؤدون مناسكه ويفدون الى أسواقه مقصورين على منطقة مكة أو بلاد الحجاز ، أو على الوثنيين من العرب ، بل قدم كثير من عرب الأرجاء النائية ، كعرب اليمن ونجد ومشارف الشام ،

---

(١) تذكر بعض الروايات أن الاشهر الحرم هي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ويذهب بعض المفسرين أن أشهر الحج هي شوال وذو القعدة وذو الحجة ، ونحن نميل الى تأييد الرأي الأول .

كما كان منهم الموحدون الحنفاء ، أو الصابئة ، والنصارى واليهود . منهم من كان يأتي لاداء مناسك الحج ، ومنهم من كان يجمع بين الحج والتجارة ،ومنهم من كان يأتي للتبشير بدينه ، أويأتي للمفاخرة والخطابة وانشاد القصائد ، أو لحل مشاكل لا يمكن حلها الا في ظروف مثل ظروف الحج وموسمه وأمنه .

وفي العصر الجاهلي ، ساد نظام « الحمس » ، ولفظ الحمس جمع مفرده الأحمس ، ومعناه ابن البلد ، وابن الحرم ، والوطني المقيم ، والذي ينتمي الى الكعبة والمقام . فهو امتياز لأبناء الوطن وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنيها ، أشبه الأشياء بحق « حرية المدينة » الذي يمنح في بلاد العرب للاضياف الشرفاء ، تمييزاً لهم واعترافاً بمكانتهم ، كما أنه اظهار لشرف الانتساب الى البلد الذي يمنح أهلوه ذلك اللقب . فقال المكيون المتميزون : « ليس لأحد من العرب حق كحقنا ولا منزلة كمنزلتنا » .

وعلامة الأحمس أن لا يعظم شيئاً من الحل (أي الأرض التي وراء الحرم) كما يعظم الحرم ، فاذا فعل ذلك استخفت العرب بحرمته ، فترك الحمس الوقوف على عرفة ، لأنه خارج عن الحرم والافاضة منها ، مع اقرارهم بأنها من مناسك الحج ويرون لسائر العرب أن يقفوا على عرفة وأن يفيضوا منها الا أنهم قالوا : « نحن أهل الحرم فلاينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرنا» .

تحدث ياقوت الحموي(١) عن مذهب الحمس فقال: « كان من سنة الحمس ألا يخرجوا أيام الموسم الى عرفات ، انما يقفون بالمزدلفة ، وكانوا لا يشتكون ولا يأقطون ولا يربطون عنزاً ولا بقرة ، ولا يغزلون صوفاً ولا وبراً ، ولا يدخلون بيتاً من الشعر والمدر ، وانما يكتفون بالقباب الحمر في الأشهر الحرم».

فأظهروا بذلك شدة تعصبهم لبقعة من الأرض ، وترفعوا عن أن يخرجوا منها ولو كان في خروجهم اتمام لمشاعر الحج . وفي القوانين الدولية الخاصة

---

(١) معجم البلدان (طبعة وستنفلد) جـ ٤ ص ٦٢٠ .

الحديثة من يكسب حق الوطنية بالدم ، ومن يكسبه بالميلاد في أرض الوطن ، ومنهم من يناله بطول الاقامة . ففكرة الحمس اقرار لحق الوطنية بالانتساب للبقعة ، وامتياز لمن له هذا الحق .

وكانت فكرة الحمس صائبة لأنها ترى الى اعزاز جانب أهل الحرم ، وتضمن سلامة القاصدين اليها وتحجز ما بين الأعداء ، وتشل أيدي المنتقمين والمتربصين فنشأ حق الالتجاء من حق الحمس (١) .

لم تكن الكعبة محرمة أو مقدسة في نظر قبيلة قريش فحسب ، بل في نظر جميع القبائل العربية ، وتجلت تلك القداسة في كل عام في سلسلة الاحتفالات والاعياد والاسواق التي كانت تقام حول مكة في بطحائها وظواهرها ، وفيها تمتزج المواسم الدينية ذات الشعائر والرسوم والتجارة والمساومة والبيع والشراء وكان للأدب عند العرب نصيبه من الاهتمام ، فطالما خطب الخطباء وأنشد الشعراء ونطق الحكماء في تلك الاسواق التي كانت فيها أركان ومواقف أشبه بمجامع العلم والادب في عصورنا الحديثة .

وأراد المكيون أن تقع مواسم الحج والأعياد والأسواق في فصل الشتاء وطرف من الربيع ، وآخر من الخريف ، فوضعوا نظام النسء . ليجعلوا من السنة القمرية والتاريخ الهلالي سنة شمسية ، ويحتفظوا بحلول الموسم في الوقت الذي يرغبونه . ولم يختر المكيون هذا الوقت من العام عبثاً ، ولم يفضلوه على غيره لطيب هوائه أو خفة حرارة القيظ على الوافدين ، انما اختاروه لأنه الوقت الذي يكون فيه الأدم والثمرات وغيرها من الانتاج الزراعي والبضائع معدة للعرض في الاسواق ، مما يحقق الفائدة المادية لبدو الجزيرة العربية الذين يعتمدون على التجارة في انتاجهم الاقتصادي في مواردهم وحياتهم .

---

(١) ثورة الاسلام ص ٨٢ .

اهتمام قريش بالحج :

تطورت مدينة مكة وأصبحت مدينة كبرى ، وخاصة بعد سقوط الدولة الحميرية في بلاد اليمن ، ونالت المنزلة الكبرى لوجود الكعبة بها ، ولازدهار تجارتها ولموقعها الجغرافي ، ويضيف المؤرخ الالماني (ولهاوزن) عاملا آخر، هو تفوق سكان مكة من قريش ، ذلك أن نهضة أهل مكــة الثقافية تأثرت بالعلاقات الطيبة مع الساميين والشماليين . فالمقطوع به أن التجارة التي امتدت الى سوريا والحيرة وجنوب بلاد العرب قد حملت مؤثرات ومطامح جديدة(١).

وسعت قريش الى تحقيق السلام في مكة ، بل في أرجاء بلاد الحجاز ، لتشجيع الحجاج والتجار على الرحيل في أمان واطمئنان ، وابتعدت قريش عن الحروب القبلية ، ونجحت في السيطرة على سائر القبائل العربية . وارتبطت قريش بالدول المعاصرة بكثير من الصلات الاقتصادية والسياسية ، واقتبسوا منها الواناً مختلفة من الحضارة والثقافة ، وتأثروا بنظمها السياسية والاجتماعية .

اهتمت قريش بشؤون مكة لتسهيل الحج ، فنظمت الخدمات البلدية ، وتوفير المياه للحجاج ، وتمهيد طرق مكة ونظافتها ، ووقاية مدينة مكة مـــن السيول التي كثيراً ما يشهدها المكيون ويعانون منها ، كمـــا اهتمت قريش باضاءة طرقات مكة ، واقامة النيران فوق الجبال العالية المحيطة بمكة لارشاد قوافل الحجاج والتجار .

في الأشهر الحرم ، يتوقف القتال ، ويشد العرب رحالهم من كل مكان الى مكة، وينزلون عند مشارفها وقرب الآبار الكثيرة المحيطة بها . حيث يقضون أياماً يبيعون ويشترون . ويتعارفون ويتسامرون . ثم يقصدون سوق عكاظ التي أصبحت ميداناً للمباراة في الشعر والخطابة ، ومحكمة يفصل وجوه العرب

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ١٧ .

في الخصومات ، وسوقاً عالمية تعج بأنواع السلع المختلفة المجلوبة من دول العالم القديم . حتى اذا فرغ الناس من سوق عكاظ ، وقفوا في عرفة ، ثم قدموا الى مكة ، فأدوا شعائر الحج ، ثم يعودون الى بلادهم .

وأثر الحج في الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية ، فقد كانت القبائل تختلط وتمتزج في سلام ، وتتناسى العداء والخصام ، فيلتقون ويتعارفون ، ويبيعون ويشترون ، ويتزاوجون ، ويتناشدون الأشعار ، ويحلون مشاكلهم ، مما يخفف من حدة العصبية القبلية ويوجد مظهراً لحياة اجتماعية راقية متماسكة.

السدانة والسقاية والرفادة :

أدرك وجوه قريش خاصة ، وأهل مكة عامة ، ما عليهم من واجبات نحو الكعبة والحجاج . فقد كانوا يرون لأنفسهم حق الحرمة والاختيار على العرب بسبب اختصاصهم بكرامة جوار البيت الحرام ، ويعتبرون أنفسهم أهله وأولياءه . كما كانوا يدركون مركز بلدهم وما أنعم الله عليهم من كرامته وقدسيته . ولذا تضامنوا في القيام بواجبهم نحو وفود الحجاج من ترحيب واكرام باعتبارهم ضيوف بيت الله الذي في بلدهم ، والذين هم سدنته .

وكانت المناصب في قبيلة قريش خمسة عشر منصباً ، قسمتها قريش بين بطونها المختلفة ، لتحفظ التوازن بينها ، وتمنع تنافرها أو تنازعها ، ولتحفظ لقريش وحدتها وتماسكها ، ولتوفر لمكة الهدوء والسلام اللازمين . لتشجيع الحجاج والتجار على الرحيل في كل عام الى مكة . وكانت أشرف هذه المناصب السدانة والسقاية والرفادة .

أما السدانة أو الحجابة ، فصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها ، يفتح بابها للناس ويغلقه ، ومنصب السدانة أبرز المناصب على الاطلاق ، والمنصب الثاني هو السقاية ، ويتولى مناصبها توفير المياه للحجاج ، ولم تكن هذه المهمة يسيرة ، لقلة المياه في مكة ، فكان من يتولى المنصب ينشىء حياضاً من الجلد ، يضعها

في فناء الكعبة ، وينقل اليها المياه العذبة من الآبار على الابل في المزايد والقرب . وكانت السقاية في بني هاشم بن عبد مناف . أما المنصب الثالث فهو الرفادة ، فكانت قريش تجمع من وجوهها بعض الأموال في موسم الحج ليقوم صاحب المنصب باعداد الطعام لفقراء الحجاج ، باعتبارهم ضيوف الكعبة . وكان أول من قام بالرفادة قصي بن كلاب ، وأصبحت في بني نوفل ، ثم في بني هاشم. ومن المناصب الكبرى التي تتعلق بالكعبة والحج منصب«العمارة» ويراد بها أن لا يتكلم أحد في المسجد الحرام بهجو ولا رفث ولا يرفع فيه صوته(١) . وعملت قريش على تشجيع الحجاج ، فبذلت كل جهد لانصاف المظلوم ، ونشر العدل ، وعقدت من أجل ذلك (حلف الفضول) « فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه (٢) حتى ترد عليه مظلمته » .

استن قصي بن كلاب ، مؤسس قريش ، سنة الرفادة ، وتوارثها أبناؤه من بعده ، فأصبحت سنة تقليدية متوارثة ، وقد عرف ابن هشام(٣) الرفادة فقال : «وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالها ، الى قصي بن كلاب ، فيصنع به طعاماً للحجاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وذلك أن قصياً فرضه على قريش ، فقال لهم حين أمرهم به : يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم . ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام أموالهم خرجاً ، فيدفعونه اليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى » .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٣٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤١ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٠ .

تولى قصي بن كلاب الحجابة والسقاية والرفادة ودار الندوة واللواء وبنت قريش بأمر قصي حول الكعبة دورها ، وتركوا مكاناً كافياً للطواف بالبيت، وتركوا بين كل بيتين منفذاً ينفذ منه الى المطاف .

أنجب قصي ثلاثة أولاد هم : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى. وكان عبد الدار أكبرهم سناً ، ولكن عبد مناف كان أكثر شهرة وأرفع شأناً ، فكسب احترام قومه وعظمت مهابته بينهم . ورأى قصي أن يعوض عبد الدار عما افتقده ، فأسند اليه بعض المناصب ليعتز بها على أخيه ، فقال قصي لعبد الدار : « أما والله لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء لحربهم الا أنت بيدك، ولا يشرب رجل بمكة ماء الا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهم الموسم طعاماً الا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها الا في دارك » .

وبعد وفاة قصي ، تولى عبد الدار هذه المهام ، وورثها أبناؤه عنه ، ولكن سرعان ما نازعهم عليها أبناء عبد مناف بن قصي ، وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل . فقد رأوا أنهم أجدر وأقدر من أبناء عبد الدار ، وأدى هذا التنافس الى انقسام قريش ، وكادوا يقتتلون ، ثم جنحوا الى السلم ، واتفقوا على أن يتولى بنو عبد مناف بن قصي السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء ورياسة دار الندوة لبني عبد الدار بن قصي .

تولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة . وحدث أن مرت فترة جدب وقحط بمكة ، وعانت منها قريش ، فرحل هاشم الى فلسطين حيث اشترى كمية كبيرة من الدقيق ، فقدم به الى مكة ، حيث صنع منه خبزاً ، ثم قام بذبح الذبائح ، وصار يهشم الخبز لقومه فأطلقوا عليه اسم « هاشم » ، بدلا من اسمه الاصلي « عمرو » وارتفع شأن هاشم في أرجاء الجزيرة العربية .

وتولى المطلب السقاية والرفادة بعد أخيه هاشم . حتى اذا شب عبدالمطلب ابن هاشم ، نازع عمه في مناصبه . واستعان بأخواله من بني النجار في يثرب ، ونجح في استرداد مناصب أبيه . ووصف ابن هشام (١) ، ما حازه عبدالمطلب من مجد وسؤدد فقال : « ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب فأقامها للناس واقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون من قبله لقومهم من أمرهم وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم » .

تولى عبد المطلب منصبي السقاية والرفادة ، ولقي مشقة كبيرة في توفير المياه اللازمة للحجاج والوافدين على مكة ، وخاصة أن مكة مرت بفترة ندرت فيها الامطار وكادت تجف مياه الآبار ، في حين أشرف موسم الحج ، ثم كانت الرؤيا التي دلت عبد المطلب على مكان بئر زمزم التي عفت عليها الايام وخرج عبد المطلب وابنه الحارث . ونجحا في كشف مكانها واعادة حفرها وتدفق الماء من جديد من هذه البئر المقدسة . تروي الزرع والثمار . وتضمن توافر الماء للحجاج وأهل مكة .

وجد عبد المطلب في بئر زمزم نفائس وذخائر ، كانت لمضاض الجرهمي وقد أخفاها في البئر وردم عليها عند اضطراره للجلاء عن مكة ، وحتى لا يعثر أعداؤه عليها ، وكان قد عجز عن حملها معه الى منفاه ، وتراكمت الرمال عبر السنين فأخفت هذه النفائس عن العيون والأيدي . ونازع القرشيون عبد المطلب فيما وجد وطالبوه بأن يشاركوه في هذه الذخائر ، ولجأ الى القداح لحسم النزاع .

كان في مقدمة هذه النفائس غزالان من الذهب وأسياف وأدرع ، وانتهت عملية ضرب القداح الى أن أصبح الغزالان من نصيب الكعبة . والأسياف

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٢ .

والأدرع من نصيب عبد المطلب ، فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين الذهبيين ، ولكن بريق الذهب جعل بعض اللصوص يطمعون فيه ، فتسللوا في جنح الظلام الى الكعبة وجردوها مما كانت تتحلى به من نفائس ذهبية .

أصبح عبد المطلب بعد اكتشاف بئر زمزم ، ينقل الماء منها الى الحياض المحيطة بالكعبة ، ويحلي الماء بالتمر والزبيب ، وكان ابنه العباس يملك بساتين عنب في الطائف وهي مدينة على مقربة من مكة ، فكان يمد والده بحاجته من الزبيب .

هدي الكعبة :

الهدي هو الحيوان الذي يسوقه الحاج ليذبحه بعد أداء مناسكه قربان شكر لله ، واذا كان الحيوان من البقر والابل سمي بدناً . وكلمة الهدي مشتقة من الاهداء على اعتبار أن القربان هدية من الحجاج الى الله أو الى الكعبة . وجرت عادة العرب في العصر الجاهلي على ذبح هديهم عند الأوثان والأنصاب في فناء الكعبة، ويتركونها بعد الذبح.وعادة ذبح القرابين للمعبودات عادة قديمة يشترك فيها البشر في بعض أدوارهم وأطوارهم ومختلف بيئاتهم . غير أن الروايات ذكرت أن العرب الجاهليين كانوا يرجعون تقليدهم في ذبح القرابين الى ابراهيم الذي امتحن بذبح ولده ففداه الله بذبح عظيم . ويرجع البعض أن العرب كانوا يعرفون أخبار هذه الاحداث ويتناقلونها ويرجعون اليهـا يعللون بها ذبح الضحايا ، كما كانوا يرجعون قيامهم بالحج الى دعوة ابراهيم للناس ليحجوا ، وكانوا يدرجون عملة ابراهيم بالكعبة ومقامه في فنائها .

وكانت العرب قبل الاسلام تعتبر العمرة الى مكة واجباً مقدساً. فكانت تقدم الذبائح لبعض الأصنام في وادي عرفة على مسافة بضعة أميال من الشمال

الشرقي لمكة ، وفي المزدلفة على مسيرة ساعتين من عرفة . وفي منى بعد مسيرة ساعتين أخريين عن المكان السابق . ثم غدت عبادة هذه الأصنام والحج اليها ، هي العبادة السائدة في وسط بلاد العرب فقامت آلاف عديدة من العرب بالحج والعمرة في الأشهر الحرم ، مما جعل الحجاز أيام الجاهلية مركز حياة العرب الدينية (١) .

وأصبحت تقاليد تقديم الهدي تعين صاحب منصب الرفادة ، في القيام بمهمته فقد كان فقراء الحجاج يأكلون من لحوم الهدي ، ولذا كان العرب يحترمون الحيوانات التي تهدى الى الكعبة ، فكانت تترك سائمة فلا يتعرض لها أحد . واعتاد الحجاج العرب تقليد الهدي ، أي وضع قلادة من سيور الجلد أو ألياف الشجر في عنقه اعلاناً بأنه هدي ، فيصبح محرماً مقدساً . واعتاد الحجاج في العصر الجاهلي أن يلطخوا جدران الكعبة بدماء الهدي ، ظناً منهم أن في هذا تقرباً الى الله والكعبة . وكانوا لا يأكلون لحوم هديهم ، ويتبرعون بها للحجاج الفقراء .

* * *

(١) هل : الحضارة العربية ص ١٦ .

١٢ ــ الكعبة قبيل الاسلام

ضعف الوثنية العربية :

فقدت الوثنية العربية قبيل ظهور الاسلام ، معناها الأول ، وقوتها السالفة ودب فيها الفساد، وتغير جوهرها وأصبحت مجموعة من الخرافات والأوهام. ولكن ، وبرغم ذلك ، احتفظ أهل مكة وزعماؤها بالأوثان عند الكعبة ، لما كانت تعود به عليهم من فوائد مادية ، فقد كانت تجذب آلاف الحجاج فيتحملون مشقات السفر من أجل الحج ويصبح موسم الحج موسم أسواق تجارية كبرى ، وتصبح مكة مركزاً تجارياً عظيماً . ويتنافس الحجاج في تقديم القرابين. وهذه الضحايا تباع وتشترى في قريش ، ويتوزعها فقراء مكة وقريش . ولذا أصبحت الوثنية بالنسبة لهم مسألة اقتصادية مادية .

تحدث المؤرخ الهندي المسلم « خودابخش » في كتابه الذي قمنا بترجمته بعنوان « الحضارة الاسلامية » (١) عن ضعف الوثنية في أواخر عصر الجاهلية فقال : كان العرب يقدسون آلهتهم ، فيحجون الى أماكنها المقدسة ، ويقدمون الأضحيات في معابدها . ويخضبون بدماء هذه الاضحيات الهياكل المصنوعة من الاحجار أو الخشب ويستجيرون بكهنتها في وقت الشدة ، ويسألونهم عما يخبئه المستقبل. ولكن كان هذا كله تظاهراً وتصنعاً . فلم يكن هناك شعور بايمان حقيقي ، ولكن كان العربي يبدي غضبه ، لاقل شيء على الآلهة ، ويخاطبهم وكأنه يعرف حقيقتهم ، فيسخر منهم .

---

(١) خود ابخش : الحضارة الاسلامية ص ٢٩ .

وهذه الحقائق – كما يقول خودابخش – توضح أن عرب ما قبل الاسلام كانوا في حالة قلق ديني قبل ظهور الاسلام ، فقد كانوا غير راضين عن نظامهم الديني وعاجزين عن الوصول الى ما هو أحسن بحيث يرضي حاجاتهم ومطالبهم ، وكانوا في اختلافات دينية كانوا يمارسون عبادة الأوثان ، ولكن بدون شعور بايمان حقيقي .

كان العرب في ظاهر أمرهم يمجدون هذه الأرباب ، ويحجون الى محرابها ويحتفلون بمواسمها السنوية ، ويذبحون القرابين في هياكلها ، ويريقون دماءها على تلك الآلهة التي يعبدونها ، سواء كانت من الحجر أم من الخشب ، بل لقد كانوا يلجأون اليها كلما حزمهم أمر يلتمسون منها البركة . ويتكشفون بواسطتها مستقبل أمرهم الغامض . ولكن عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر ، أما فيما عدا ذلك ، فقد كانوا لا يترددون في تحطيم آلهتهم اذا لم تتحقق نبوءتها .

دعوة الى تخليص الكعبة من الأوثان :

قبيل ظهور الاسلام ، أبدى بعض وجوه العرب ، من الشخصيات المستنيرة سخطهم على الوثنية ، وأملوا في دين أسمى من أديان وطنهم . فروى ابن هشام(١) : « اجتمعت قريش يوماً في عيد لها عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل ... فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين ابراهيم ، ما حجر نطيف

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٧.

به ، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم ، التمسوا لانفسكم ديناً ، فانكم والله ما أنتم على شيء فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم».

نقرأ في المصادر القديمة عن أبي أنس قيس بن صرماح ، وقد نادى بنبذ الاوثان كما نقرأ أيضاً عن الوليد بن المغيرة ، وعثمان بن مدهون اللذين نهيا عن شرب الخمر زمن الجاهلية .

استعرض المسعودي أديان العرب في العصر الجاهلي فقال : « كانت العرب في جاهليتها فرقاً : منهم الموحد المقر بخالقه ، المصدق بالبعث والنشور ، موقناً بأن الله يثبت المطيع ، ويعاتب العاصي ، وقد تقدم ذكرنا في هذا الكتاب وغيره ممن كتبنا من دعا الى الله عز وجل ونبه أقوامه على آياته في الفترة ، كقس بن ساعدة الايادي ورثاب الشني ، وبحير الراهب ، وكان من عبد القيس .

« وكان من العرب من أقر بالخالق ، وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والاعادة وأنكر الرسل ، وعكف على عبادة الأصنام ، وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » الآية . وهذا الصنف هم الذين حجوا الى الاصنام وقصدوها ونحروا لها البدن ، ونسكوا لها النسائك وأحلوا لها وحرموا .

« ومنهم من أقر بالخالق ، وكذب بالرسل والبعث ، ومال الى قول اهل الدهر وهؤلاء الذين حكى الله الحادهم وخبر عن كفرهم بقوله تعالى : (وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر) فرد الله عليهم بقوله : (وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) .

ومنهم من مال الى اليهودية والنصرانية ، ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجمته. وقد اشتهر صنف من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله ، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم الى الله وهم الذين اخبر الله عز وجل عنهم بقوله

تعالى : (ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون) وقوله تعالى : (افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى الكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى) .

أفرد ابن قتيبة فصلا في كتابه « المعارف» (١) جعل عنوانه « قصة من كان على دين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم » فذكر عدة اسماء ومن هذه الاسماء زيد بن عمرو بن نفيل وهو ابن عم عمر بن الخطاب ، وكان زيد قد رغب عن عبادة الاوثان وطلب الدين فقتله النصارى بالشام ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم انه يبعث امة واحدة . ومنهم ايضاً امية بن ابي الصلت ، وكان قد قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان وكان يخبر بأن نبياً يبعث قد اظل زمانه . ومنهم ايضاً اسعد ابو كرب الحميري ويذكر ابن قتيبة انه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل ان يبعث بسبعمائة سنة وقال :

شهدت على احمد انه ... رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري الى عصره ... لكنت وزيراً له وابن عم
والزم طاعته كل من ... على الارض من عرب أو عجم

ومن هؤلاء قس بن ساعدة الايادي وهو حكيم العرب ، وذكر الرسول أنه رآه يخطب في سوق عكاظ وهو على جمل احمر . ومنهم ايضاً ابو قيس صرمة بن ابي أنس وهو من بني النجار وكان قد ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً وقال : أعبد رب ابراهيم فلما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام المدينة أسلم وحسن اسلامه .

وآخر من عددهم ابن قتيبة هو خالد بن سنان بن غيث وهو من بني عبس ابن بغيض ، وروي ان رسول الله قال : ذلك نبي أضاعه قومه . ويروي ابن قتيبة ان ابنته قدمت على الرسول فسمعته يقرأ : قل هو الله أحد . فقالت : كان أبي يقول ذا .

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٧ – ٢٩ .

ويذكر المؤرخ الالماني « جوزيف هل »(١) أن أناساً في بلاد العرب ولاسيما في مكة كانوا ساخطين على الديانة القائمة بينهم ، وتلمسوا الهداية في المسيحية واليهودية او انتقوا نوعاً من العبادة كان جديداً وتقدمياً في نفس الوقت . ويصف المؤرخ « ويتلف نيلسن » في مقال له بعنوان « الديانة العربية القديمة»(٢) الاصنام قبيل ظهور الاسلام بأنها «آلهة عهد الاضمحلال والتدهور الذي سبق الاسلام » .

الكعبة مركز الدعوة الحنيفية :

قبيل ظهور الاسلام ظهرت حركة اصلاحية تهدف الى العودة الى دين ابراهيم الحنيف وتخليص الكعبة من الأوثان واصلاح احوال العرب . فقد ظهرت مدرسة جديدة ذات عقيدة تدعى الحنيفية . فقد كان من بين العرب أناس مستنيرون فطنوا الى سوء حالتهم الدينية وحاولوا الارتقاء من الوثنية الى اعتقادات ارقى منها ودعوا الى دين التوحيد والى احياء ملة ابراهيم ونبذ عبادة الاوثان والتخلص من عادات الجاهلية . وكانوا يعتقدون في البعث وبوجود اله واحد يحاسب ويجازي الناس على اعمالهم من خير او شر ويطلق على هذه النزعة التحنف ، وعلى اصحابها الحنفاء .

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في سورة آل عمران (٣) : (ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً . ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين) وقال الله تعالى في هذه السورة ايضاً (٤) : (قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) .

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ١٩ .
(٢) التاريخ العربي القديم .
(٣) آيــة ١٧٧ .
(٤) آيــة ٦٧ .

كان كعب بن لؤي بن غالب احد اجداد الرسول من الحنفاء فكان يجمع قريشاً ويطلب منهم التفكير في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ويذكرهم بالموت وأهواله واليوم الموعود واحواله ويبشرهم بظهور نبي .

والحنفاء هم من احتفظوا بدين ابراهيم من الجاهليين فلم يشركوا بربهم احداً ولم يعتنقوا اليهودية ولا المسيحية ، كما نبذوا الوثنية . وقد كان العرب جميعاً قبل عهود الوثنية في عهد عمرو بن لحي الخزاعي يدينون بدين التوحيد الذي بشر به ابراهيم .

عد بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصارى واستدلوا على ذلك بما ورد في بعض المصادر القديمة من اعتناق بعض من نبذوا الوثنية الدين المسيحي مثل ورقة بن نوفل ، غير ان القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على ان الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى وانهم يعتنقون دين ابراهيم ولم يكن ابراهيم يهودياً ولم يكن نصرانياً ، كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة حنيفاً مسلماً يؤمن بالتوحيد .

لم ينتظم الحنفاء في طائفة ولم يرتبطوا برباط واحد ولم يشتركوا في عبادة واحدة معينة ، ولكننا نعتقد ان هؤلاء الحنفاء او المتعبدين على ملة ابراهيم لم يكونوا عدداً قليلا فلو لم يكونوا كثرة محسوسة لما عدهم القرآن الكريم فئة خاصة واشار اليهم بهذه الحفاوة وسلكهم مع اهل الكتاب والمؤمنين ، ثم مع اهل الاديان المستقلة عامة في سلك واحد وتحت اسم مستقل . وقد ذكرت لنا كثير من المصادر القديمة اسماء عديدة لهؤلاء الحنفاء(١) .

كما ان ظهور الحنفاء المستنيرين في غير مكان واحد وفي غير وقت واحد يدل على ظهور فكرة جديدة مستنيرة دارت في اذهان المفكرين المستنيرين

---

(١) دروزة : عصر النبي ص ٤٣٢ .

من العرب قبيل ظهور الاسلام وهي فكرة نبذ عبادة الاوثان والتخلص من العادات السيئة الجاهلية والرقي بالعقيدة والسمو بالانسانية وهي حلقة في سلسلة التطور الديني والفكري في تاريخ العرب .

نظر هؤلاء الحنفاء الى الحياة نظرة اكثر سموآ. ولكن لم يكن لهم من القوى المادية ومن السلطة السياسية ما يمكنهم من ان يصارعوا التعاليم والعادات القديمة والطقوس الدينية والشعائر المقدسة التي كانت قد تشابكت مع حياة العرب . ولا يمكن القضاء عليها الا بهدم المجتمع العربي من اساسه وهذا ما نجح الاسلام فيما بعد في تحقيقه اذ خلق مجتمعاً اسلامياً نقياً متماسكاً .

كافح الحنفاء من اجل القضاء على الوثنية ورذائل الجاهلية ، ولكن جهودهم لم تنجح في التخلص من الماضي والقضاء على التقاليد المتوارثة عن الآباء والاجداد وكانت حركة الحنيفية تفتقر الى سند دنيوي بظاهرها وترتكز عليه(١) .

كان محمد صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي يؤمن ان الوقت قد حان لقيام حركة اصلاحية كبرى فقد انحدر العالم الى الوثنية العمياء وابتعد الناس عن الطريق القويم ، كما رأى ان تعود الكعبة الى ما كانت عليه زمن جده ابراهيم . وكانت هذه الافكار تتوارد على ذهنه دائماً وأثرت في اعماله وافعاله . فقد كان كثيراً ما ينعزل عن المجتمع وينفرد بنفسه في جبل حراء على بعد ثلاثة فراسخ من مكة حيث يقضي عدة ايام في الصلاة والتعبد ، وكان يمضي شهر رمضان في الغار ، وكان لا يشغل ذهنه الا بموضوع واحد هو الروح .

وقد اعتاد بعض الحنفاء ان ينقطعوا للعبادة زمناً في كل عام يقضونه بعيداً عن الناس في خلوة يتقربون الى الله بالزهد والدعاء . ويلتمسون عنده الخير والحكمة . وكانوا يسمون هذا الانقطاع التحنف او التحنث .

---

(١) خواد بخش : الحضارة الاسلامية ص ٣٣ .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم قبل ظهور الاسلام من الحنفاء حتى اذا بلغ الاربعين من عمره نزل عليه الوحي واصبح رسول الله . وكان محمد في غار حراء يعبد الله وحده فنزل عليه جبريل عليه السلام يبلغه اختيار المولى عز وجل له ليكون رسوله الصادق الامين .

وان كانت جهود الحنفاء لم يكتب لها النجاح التام فانها قد فتحت آفاقاً جديدة من التفكير ، ونجد آثار ذلك واضحة في ظهور عقيدة توحيد الله ، ويقظة الضمير ، والشعور بالمسؤولية ، وصحب ذلك ظهور عقيدة توحيد الله ، ويقظة الضمير بعض المشاعر الانسانية صورها الشعراء في القرن السادس الميلادي في شعرهم .

* * *

١٣ ــ الرسول والكعبة

تصدع الكعبة :

حينما كان الرسول في الخامسة والثلاثين من عمره(١) اشترك حادث جليل أثار اهتمام جميع العرب في ارجاء الجزيرة العربية وهو اعادة بناء الكعبة .

وكانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة في أمر الكعبة فقد كانت بدون سقف منخفضة الارتفاع مما جعلها نهباً للصوص الذين اقدموا على سرقة بعض كنوز الكعبة التي كان القرشيون يحتفلون بها في جوفها .

كان ارتفاع الكعبة تسع اذرع اي نحواً من سبعة امتار ولم يكن لها سقف وكان بابها بمستوى الارض فيدخلها من شاء ويلقي فيها الناذرون نذورهم من حلي ومتاع وطيب ونقود فتقع في خزانة الكعبة التي كانت بمثابة صندوق للنذور وهي بئر عند بابها على يمين الداخل .

تعرضت مكة لعدة سيول في اوقات متفاوتة وحدث ان نزل سيل جارف من الجبال المحيطة بمكة فانحدر نحو الكعبة وصدع جدرانها واصبحت قريش مضطرة الى الاقدام على اصلاح ما افسدته السيول وكانت من قبل تجد حرجاً في اعادة بنائها او ادخال اصلاحات عليها ، وكانت الظروف مهيأة لقريش لتقوم باصلاح الكعبة فقد رمى البحر بسفينة الى جدة كانت لاحد تجار الروم. وكانت هذه السفينة قد بعث بهـــا ملك الروم الى الحبشة من مصر ليقوم ركابها ببناء

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٤ وذكر العمري « مسالك الابصار » جـ ١ ص ٦٤ ان عمر الرسول كان ٢٥ سنة او ٣٥ سنة .

كنيسة هناك (١) وخرج وفد قرشي برياسة الوليد بن المغيرة الى جدة لشراء هذه السفينة .

وكان في مكة رجل نجار مسيحي يدعى ياقوم (أو باقول في بعض الروايات) ورأت قريش ان تستعين بخبرته . ويروي ابن هشام(٢) انه « كانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح فيها ما يهدى لها كل سنة فتشرق على جدار الكعبة ، وكانت مما يهابون ، وذلك انه كان لا يدنو منها احد الا احزورأت وكشت وفتحت فاها ، وكانوا يهابونها فبينا هي دات يوم تتشرق على جدار الكعبة ، كما كانت تصنع بعث الله اليها طائراً فاختطفها فذهب بها ، فقالت قريش : « انا لنرجو ان يكون الله قد رضي ما أردنا ، عندنا عامل دقيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية » .

بدأت قريش عملية الهدم والبناء ، وكان اول من بدأ الهدم عائذ بن مروان بن مخزوم فتناول من الكعبة حجراً فوثب بين يديه حتى رجع الى موضعه — كما يروي ابن هشام (٣) — فقال عائذ : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم الا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ، ولا مظلمة احد من الناس .

اقتسمت قريش جوانب الكعبة الاربعة على ان يتولى كل فريق الهدم والبناء . ولكنهم ترددوا في الاقدام على الهدم خشية ان يلحقهم الاذى ، فقال الوليد بن المغيرة : انا ابدؤكم في هدمها . ثم اخذ المعول وبدأ الهدم وهو يقول: اللهم انا لا نريد الا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين . وانتظر الناس ليلة وقالوا ننظر فان اصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت وان لم يصبه شيء فقد رضي الله صنعنا فهدمنا .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٠٥ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٠٦ .

عاود القرشيون الهدم في اليوم التالي وانتهى الهدم بهم الى الاساس ، اي اساس ابراهيم عليه السلام وهي احجار خضراء فضربوا عليها بالمعامل فارتدت عنها فرأوا أن يتخذوا هذه الاحجار اساساً للبناء الجديد .

ويروي ابن هشام (١) ان قريشاً وجدت في الركنين كتاباً بالسريانية فلم يدروا ما هو مكتوب فيه وعهدوا بذلك الى رجل يهدي فكان المكتوب : (انا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السموات والارض وصورت الشمس والقمر وحففتها بسبعة افلاح حنفاء لا تزول حتى يزول اخشبانها (٢) مبارك لاهلها في الماء واللبن » .

الرسول واعادة بناء الكعبة :

ثم بدأ بناء الكعبة من جديد فرأوا تعليتها وكان بابها لاصقاً بالارض منذ عهد ابراهيم . فقال ابو حذيفة بن المغيرة : يا قوم ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها احد الا بسلم فانه لا يدخلها حينئذ الا من اردتم فان جاء أحد ممن تكرهونه رميتم به فسقط وصار نكالا لمن يراه (٣) .

جمعت بطون قريش احجاراً من الجرانيت الازرق من الجبال المحيطة بمكة وبدأت البناء حتى بلغ البناء موضع الركن اي الحجر الاسود واصبح ارتفاع البناء حينئذ الى قامة الرجل وارادوا وضع الحجر الأسود في مكانه في الجانب الشرقي ، فاختلفت بطون قريش على من يحوز شرف اعادة الحجر الاسود الى مكانه واشتدت حدة الخلاف وكاد القتال ينشب بين بطون قريش ، وتحالف بنو عبد

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٨ .
(٢) الاخشبان : جبلان في مكة .
(٣) العمري : مسالك الابصار جـ ١ ص ٩٤ .

الدار وبنو عدي بن كعب على الموت وأعدوا جفنة مملوءة دماً وادخلوا ايديهم في هذا الدم ، ولذا سموا (لعقة الدم) واستمر النزاع اربع ليال او خمساً ، ثم رأوا الاجتماع للتشاور وحسم النزاع .

وقف ابو امية بن المغيرة وكان اسن قريش فقال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه اول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ، ففعلوا .

وكان اول داخل هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان قد اشترك معهم من قبل في نقل الاحجار « وكانوا يعرفونه بالامين لوقاره وهديه ، وصدق لهجته واجتنابه القاذورات والادناس فحكموه فيما تنازعوا فيه وانقادوا الى قضائه(١).

قال محمد هلم الي ثوباً ، حتى اذا أتي له بثوب اخذ الحجر الاسود فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوا جميعاً . فحملوه جميعاً الى ما يحاذي موضع الحجر من البناء ثم قام محمد بوضعه بيده في موضعه.

اكملت قريش البناء حتى اصبح ارتفاع الكعبة ثماني عشر ذراعاً ورفعوا بابها عن الارض حتى لا يدخلها الا من سمحوا له بذلك . وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين وجعلوا في ركنها الشامس من داخلها درجاً يصعد بها الى سطحها . ووضع هبل في داخل الكعبة كما وضعت في داخلها الذخائر التي تعرضت من قبل بنائها وسقفها للسرقة .

وهكذا نجح محمد عليه الصلاة والسلام في حسم الخلاف والنزاع وجنب القرشيين القتال فقال قائل من قريش : واعجبا لقوم اهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا الى اصغرهم سناً واقلهم مالا فجعلوه عليهم رئيساً وحاكماً اما واللات والعزى ليفوقنهم سبقاً وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً وليكونن

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ .

له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم(١) واستمع ابو طالب عم الرسول الى هذه العبارات فأنشد :

ان لنا أولـه وآخـره في الحكم العدل الذي لا ننكره
وقد جهدنا جهدنا ليغمره وقد عهدنا اوله وآخره
فان يكن حقاً ففينا اكثره

وأعادت قريش الصور والاصنام كما كانت فقال المسعودي (٢) :« كان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الاصباغ عجيبة : منها صورة ابراهيم الخليل في يده الازلام ، ويقابلها صورة اسماعيل ابنه على فرس يجيز الناس مفيضاً ، والفاروق قائم على وفد الناس يقسم فيهم ، وبعد هذه الصورة صور كثير من اولادهم الى قصي بن كلاب وغيرهم وفي نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور اله وصاحبها وكيفية عبادته ، وما اشتهر من فعله» .

اختلف في سن محمد حين بناء الكعبة وحين حكمه بين قريش في أمر الحجر الاسود فقيل كان ابن خمس وعشرين وقال ابن اسحاق كان ابن خمس وثلاثين ، وسواء أصحت الاولى ام الاخرى من هاتين الروايتين فان اسراع قريش الى الرضا بحكمه اول ما دخل من باب الصفا وتصرفه هو في اخذ الحجر ووضعه على الثوب واخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة يدل على ما كان له من مكانة سامية في نفوس اهل مكة ومن تقدير جم لما عرف عنه من سمو النفس ونزاهة القصد (٣) .

الكعبة عند ظهور الاسلام :

قبل ظهور الاسلام نبذ البعض كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم عبادة

(١) مروج الذهب : جـ ٢ ص ٢٧٩ .
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٧٨ .
(٣) هيكل : حياة محمد ص ١٢٤ .

الاوثان ونظروا الى الكعبة على اعتبارها بيت الله الحرام ، ولذا يجب تخليصها من الاوثان ومظاهر الشرك بالله عز وجل . كما نظروا الى الحياة نظرة اكثر سمواً ، ولكن لم يكن لهم من القوى المادية ما يمكنهم مـــن ان يصارعوا التعاليم والعادات القديمة التي امتدت جذورها الى اعماق حياة العرب ولا يمكن القضاء عليها الا بهدم المجتمع العربي من اساسه .

شعر بعض العرب بحاجتهم الى الاصلاح والى انقاذ الكعبة من ادران الوثنية ولكنهم ترددوا في نزع اول حجر من اسس ذلك الدين ، ولذا كانت جهودهم محدودة فلم تنجح في التخلص من الماضي والقضاء على التقاليد البالية التي كانت تنتقص من شأن العرب واهميتهم في العصور القديمة .

ولم يكن هناك غير محمد صلى الله عليه وسلم الذي كانت تحيط به العناية الالهية ويشعر بالغيرة الدينية وكانت روحه العالية لا تقبل تعدد الالهة في بلاد العرب وانتشار الاوثان حول الكعبة وداخلها وانصراف العرب الى حيـــاة الترف والشهوات واصبح يفكر دائماً في تحطيم هذا النظام القائم ونجح محمد في ان يخلق مجتمعاً نقياً عظيماً قوياً سليماً(١) .

ومن هذه الوثنية الحاطة للقدر سما النبي الكريم ببلاد العرب كلها في فترة وجيزة من الزمن قدرها عشرون عاماً ولم تقتلع جذور الوثنية من ارض العرب وحدهم بل ان بارقة الحماس لعبادة اله واحد قد اشتعلت في افئدة هؤلاء العرب انفسهم فحملتهم الى اقصى حدود ما عرف من العالم وقتئذ لرفع اسم الاحد الصمد .

ولم تفت سعة المسافة في عضد الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قـــام بدعوته فانتشلت بلاد شاسعة لا تقل مساحتها عن مليون وربع مليون مـــن

---

(١) خودابخش : الحضارة الاسلامية ص ٦ .

الاميال المربعة من لعنة الوثنية انغمس فيها الناس انغماساً ميئوساً عن مقاومته لقدم العهد بتقاليد متوارثة ومحمدا بهذا يستحق لقب محطم الاصنام ومزيل الوثنية (١) .

وصف ابن حزم(٢) اثر الاسلام في تقـــدم العرب وتخليصهم من مفاسد الجاهلية فقال : « وكانت العرب بلا خلاف قوماً لقاحاً لا يملكهم احـــد كربيعة ومضر واياد وقضاعة او ملوكاً في بلادهم يتوارثون الملك كابراً عن كابر .. فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله وهم الأف وصاروا اخوة كبني أب او أم وانحل كل ما أمكنه الانحلال عن ملكه منهم الى رسوله طوعاً بلا خوف غزو ولا اعطاء مال ولا بطمع في عز .. بل كلهم اقوى جيشاً من جيشه ، واكثر مالا وسلاحاً منه . واوسع بلداً من بلده » .

ووصف « فون كريمر » اثر الاسلام في توحيد العرب فقال : جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتّى القبائل في نظام سياسي واحد، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهش والاعجاب وان فكرة واحدة قد حققت هذه النتيجة تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية .

الرسول والكعبة :

ظل الرسول ثلاث سنوات يدعو الى الاسلام سراً كل من يثق فيه او يرى منه قبولا للدين الجديد وكان يصلي هو والمسلمون خفية في شعاب مكة(٣) الى ان امره الله باظهار دينه فقد نزلت عليه هذه الآيات الكريمة : (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين انا كفيناك المستهزئين) (٤) . وجهر الرسول

---

(١) مولاي محمد علي : محمد رسول الله ص ١٥ .
(٢) ابن حزم : الفصل في الملل .
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٥ .
(٤) سورة الحجر : آية ٩٤ — ٩٥ .

بالاسلام واعلن الدعوة الى وحدانية الله ونبذ الوثنية . ولجأ في ذلك الى طريقة عربية متبعة وقتئذ وهي طريقة النداء فسار الى جبل الصفا بظاهر مكة ونادى كل بطن من بطون قريش حتى اذا اجتمعوا اليه قال لهم : ان الله امرني ان انذر عشيرتي الاقربين واني لا املك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً الا ان تقولوا لا اله الا الله . فقال له ابو لهب تباً لك سائر اليوم الهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى في ابي لهب وزوجته : (تبت يدا ابي لهب وتب ما اغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد) .

بدأت عداوة قريش بعد ذلك تظهر ظهوراً واضحاً فقد كان جهر الرسول بالدعوة الى وحدانية الله وغضه من شأن الاوثان كل ذلك جعل قريشاً تؤمن بأن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث و«العبادة القومية»(١) وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ .

كانت قريش ترى انها اذا اتبعت الدين الاسلامي سقطت قيمة اصنامها وضاعت قدسيتها ، وبذلك تفقد قريش ما كانت تستفيده من قدوم القبائل العربية للحج الى مكة وتقديم القرابين الى الاوثان التي نصبتها قريش حول الكعبة . كما كان عزوف قريش عن عبادة الاصنام يفقدها احترامها بين العرب ويجعل تجارتها عرضة للخطر كسائر تجارات القبائل الاخرى بعد ان كانت في امان لا يعتدي عليها احد لئلا يعرض نفسه لنقمة الالهة وغضبها .

وكان الاسلام يساوي بين الجميع حينما كانت قريش تدين بنظام الطبقات فكان سراتهم يأنفون من مخالطة السوقة او مجالستهم وكان الاسلام يحرم الموبقات ورذائل الجاهلية وهذه أحب الاشياء الى زعماء قريش .

---

(١) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٣٧ .

اشتد عذاب قريش للمسلمين فسمح الرسول لهم بالهجرة الى الحبشة واستمر الرسول يدعو الناس الى الاسلام حتّى اذا أسلم حمزة بن عبد المطلب وكان شخصية لها شأن كبير كف القرشيون عن المسلمين بعض اذاهم حتّى اذا أسلم عمر بن الخطاب دخل الاسلام في دور جديد ، فكان المسلمون قبل اسلامه لا يستطيعون الصلاة عند الكعبة ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتّى صلى عندها وصلى معه المسلمون وجهر المسلمون بتلاوة القرآن الكريم ، كما اعتنق الاسلام كثير من الناس اقتداء بحمزة وعمر(١) .

كانت هجرة المسلمين الى الحبشة فراراً من اذى قريش واسلام حمزة وعمر ضربتين اصابتا قريشاً في الصميم فرأى القرشيون ان يتخذوا امراً حاسماً فاتفقوا على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب . وعاهدوا انفسهم على الا يتعاملوا معهم في بيع او شراء او زواج ولا يجالسوهم ولا يكلموهم حتّى يسلموا اليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة(٢) .

ظل بنو هاشم وبنو عبد المطلب مهجورين في شعب من شعاب مكة ثلاث سنين لا يصلهم القوت الضروري الا خفية وكانوا لا يخرجون الا في الاشهر الحرم حيث حرم القتال في جميع ارجاء بلاد العرب وعقد حلف بين الفريقين حتّى يتمكن الحجاج من زيارة الكعبة بمكة التي كانت تعتبر مركز ديانة العرب حينئذ .

ولكن بعض القرشيين رثوا لحال اخوانهم في العروبة بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعبر زهير بن امية عن رأيهم فقال : يا اهل مكة انأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ؟ والله لا اقعد حتّى تشق هذه الصحيفة الظالمة(٣) .

---

(١) المقريزي : امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٥ .
(٢) ابن هشام ج ١ ص ٣٧٥ .
(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٤ .

وتروي المصادر العربية ان الرسول صلى الله عليه وسلم رأى في حلمه ان الله قد سلط الأرضة على الصحيفة واخبر فمحت كل ما فيها من ظلم او قطيعة رحم وبقي بها اسم الله . واخبر الرسول عمه برؤياه فقدم ابو طالب على المشركين وقال : « هلموا الى صحيفتكم فان كانت كما قال ابن اخي » ، فوافقوه ، واذا بالصيحفة قد تآكلت وانمحت عباراتها عدا عبارة باسمك اللهم وحاول ابو جهل ان ينقض الاتفاق ولكن هب في وجهه بعض رجالات قريش الذين احزنتهم القطيعة فأرغموا على نقض الصحيفة وعاد المسلمون الى الصلاة عند الكعبة .

عاد الرسول عليه الصلاة والسلام ونشر الاسلام بين اهل مكة ، وكان كل اعتماده في نشر الدعوة في موسم الحج ، فكان يلتقي بالقبائل عند الكعبة ويدعوها الى الاسلام ، ولكن عمه ابا لهب كان يصدهم عن سماعه فيقول : « انما يدعوكم الى ان تسلخوا اللات والعزى من اعناقكم الى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » . ولكن كثيراً من القبائل رأت في الاسلام خير دين يخلصهم من الوثنية ورذائل الجاهلية .

وبعد فترة وجيزة اسري بالرسول من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى حيث عرج به الى السموات السبع ، وفي تلك الليلة فرض الله على المسلمين الصلوات الخمس (١) .

خروج الرسول والمسلمين للعمرة :

هاجر الرسول والمسلمون الى يثرب (المدينة المنورة) واستمر الصراع بين المسلمين وقريش واتخذ هذا الصراع شكل حروب متصلة تسمى « الغزوات » اشهرها غزوة بدر ، وغزوة احد وغزوة الخندق .

وفي ذي القعدة سنة ٦ هـ رأى الرسول ان يدخل مكة معتمراً لا غازياً ليعلن

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٥ — ١٠ .

للعرب ان دينه الاسلامي يحترم الكعبة ، كما يحترمونها ، فيقرب بينه وبينهم يزيل شيئاً من جفوتهم له ، وخرج الرسول لاداء العمرة ومعه الف واربعمائة من المهاجرين والانصار وليس معهم سلاح الا السيوف في اغمادها ، وكان معهم هدي كثير يسوقونه الى فقراء اهل مكة .

علم اهل مكة بخروج الرسول والمسلمين فأصابهم الذعر واجمعت قريش وحلفاؤها على صده عن المسجد الحرام وبعثت خالد بن الوليد على رأس مائتي فارس لمنعه من دخول مكة . فقال الرسول : ويح قريش لقد اكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب(١) ؟ ثم أمر الرسول اصحابه ان يبتعدوا عن طريق خالد ثم نزل في الحديبية .

ارسلت قريش بعض رسلها يطلبون من الرسول العدول عن دخول مكة ، وعاد احدهم الى قريش وهو عروة بن مسعود الثقفي يقول : اني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه واني والله ما رأيت ملكاً في قومه مثل محمد في اصحابه . ورأى الرسول ان يفاوض قريشاً في السماح للمسلمين بالعمرة ، لكنهم ابوا ذلك عليهم . وبعثت قريش بعض رجالها يهاجمون المسلمين على غرة لكن المسلمين هزموهم .

لم تجد قريش مفراً من التفاوض مع الرسول في الصلح فاتفقوا على :

١) ان تضع الحرب اوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين ٢) ان يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون اذن وليه ولا تلزم قريش برد من يأتي اليها من عند محمد ٣) من أراد الدخول في عهد قريش فله ذلك ، ومن أراد الدخول في عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك ٤) ان يرجع الرسول هذا العام دون ان يؤدي العمرة فاذا كان العام القادم دخل مكة بعد ان تخرج منها قريش ليس معه الا سلاح المسافر(٢) .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٢٧٨ .
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٦ .

كسب الرسول بهذا الصلح كسباً سياسياً عظيماً اذ انتزع قريشاً من القبائل العربية التي كانت تقودها لقتاله ، وقد أراد الرسول منها ان تخلي بينه وبين غيرها من العرب فمكنته بهذه الموادعة مما أراد وفتحت امامه الابواب لنشر رسالته على نطاق واسع واعترفت بحق المسلمين في القدوم الى الكعبة واداء العمرة .

كما اخذت قريش بعد صلح الحديبية تغير نظرها الى الرسول فاصبحت ترى انه قرشي على الرغم من العداوة بينها وبينه ويجمعه واياها نسب واحد وصارت تعجب بعلو شأنه الديني والسياسي مما حمل بعض رجالاتها مثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد على الهجرة الى المدينة واعتناق الاسلام .

وكان هذا الصلح بمثابة اعتراف من قريش بقوة الجماعة الاسلامية وايذاناً بنهاية عهد الوثنية وتحرير الكعبة من اوثانها وهو ما حدث فعلا حينما تقدم الرسول من المدينة الى مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين ودخل مكة دخول الفاتح وحطم اصنام الكعبة .

استفاد الرسول من صلح الحديبية فقد بدأ نشاطاً عظيماً في ميداني السياسة والحرب فجاوز بدعوته حدود بلاد العرب فدعا ملوك الروم والفرس والحبشة وامراء العرب الى الاسلام ، كما اخذ يضم اليه قبائل العرب قبيلة بعد قبيلة ، ثم وجه ضربة قاضية الى ألد اعدائه في جزيرة العرب وهم يهود خيبر .

غضبت القبائل العربية على قريش لأنها انفردت بالصلح مع المسلمين فتخلت عن نصرتها وعمل الرسول على ضم هذه القبائل الى الجماعة الاسلامية واحدة بعد اخرى . اما قريش فقد ظلت على عزلتها وجمودها في الدين والسياسة وما لبثت ان ادركت عجز سياستها بعد الصلح فرأت ان تترك امرها ومصيرها في يد القضاء والقدر .

حان الوقت الذي حددته معاهدة الحديبية لقيام الرسول والمسلمين بأداء

العمرة في مكة وقضاء ثلاثة ايام عند الكعبة . وحل الرسول مع عدد كبير من المسلمين يبلغ نحو الفين وصحبوا معهم ستين من الابل ليضحوا بها عند الكعبة . وكم تمنى اعداؤه من المشركين ان يمنعوا تقدمه نحو مكة لولا ما بينهم من تعاهد فتركوه يتقدم نحو التلال المجاورة . وعندما اصبح الرسول قريباً من مكة ترك المسلمون اسلحتهم وقام بحراستها مائتان من الجند المسلمين وقال الرسول : لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ، ولكن نكون قريباً منه فاذا رأينا من المشركين الغدر كان السلاح قريباً منا .

جلت قريش عن مكة وصعدت الى التلال المجاورة وتقدم الرسول عليه الصلاة والسلام ممتطياً ظهر ناقته القصواء يحيط به كبار الصحابة ومن خلفهم تقدم المسلمون وهم جميعاً ينادون : لبيك لبيك حتى اذا بلغ الرسول المسجد اضطجع بردائه واخرج عضده اليمنى ثم قال : اللهم ارحم امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة . ثم استلم الركن عند الحجر الاسود وهرول وهرول اصحابه معه، فلما استلم الركن اليماني مشى حتى استلم الحجر الاسود مهرولاً من جديد ثلاثة أطواف ومشى سائرها ومن خلفه المسلمون يحتذون حذوه، ولما أتم المسلمون الطواف بالكعبة انتقل محمد على رأسهم الى الصفا والمروة فسعى بينهما سبعاً كما كان يفعل العرب من قبل ثم نحر الهدي عند المروة وحلق رأسه وأتم بذلك فرائض العمرة .

وفي اليوم التالي دخل الرسول الى الكعبة وبقي بها حتى صلاة الظهر . ولقد كانت الاوثان لا تزال تحيط بالكعبة واعتلى بلال ، مؤذن الرسول ، سقف الكعبة واذن في المسلمين لصلاة الظهر عندها وأم الرسول الالفين من المسلمين وأقاموا جميعاً في مكة ثلاثة أيام ، كما نصت معاهدة الحديبية ، زاروا فيها اهلهم واصدقاءهم واطمأنوا على مصالحهم .

الكعبة بعد فتح مكة :

انتشر الاسلام في معظم ارجاء الجزيرة العربية . وجالت خواطر كثيرة في نفس محمد صلى الله عليه وسلم جعلته يفكر في القيام بمشروع كبير . فقد تذكر وطنه الاصلي وتذكر اسرته وأقاربه والسنوات السعيدة التي قضاها في مكة التي ما زالت في أيدي اعدائه المشركين وتذكر ان الكعبة التي يحج اليها اولاد اسماعيل لا تزال تحت سيطرة الوثنيين وعزم على ان يخلص بيت الله الحرام من ايدي المشركين فيجعله مكاناً لعبادة الله وحده ومقصداً للمسلمين .

نقض القرشيون معاهدة الحديبية فقد باغتوا خيام بني خزاعة المسلمين وقتلوا عشرين مسلماً فبدأ المسلمون يستعدون للقتال فقد شعر القرشيون بالخوف من ازدياد قوى المسلمين المستمر ورأوا ان يتجنبوا الدخول معهم في حروب ومعارك فبعثوا بقائدهم ابي سفيان الى المدينة كسفير للسلام فقد كانوا يعرفون صلته بالرسول فقد كان الرسول متزوجاً من ابنته ام حبيبة .

وكانت مهمة ابي سفيان صعبة فقد كان عليه ان يذهب ليلتمس السلام ممن كان يقف بالامس منه موقف العداء . والتمس ابو سفيان وساطة ابي بكر ثم علي بن ابي طالب وابنته ام حبيبة دون جدوى وعاد ابو سفيان الى مكة خائباً واستقبله القرشيون بالسخرية والاستهزاء .

أعد الرسول حملة عسكرية لفتح مكة وتحرير الكعبة من الاوثان ثم خرج الرسول على رأس عشرة آلاف مسلم وقاد عمر بن الخطاب الجيش عبر دروب بين الجبال غير مطروقة ونهى المسلمون عن اصدار صوت او دق طبول حتى لا يعرف المشركون شيئاً عن تحركاتهم . وخلال الرحلة قدم على الرسول عمه العباس ومعه اسرته معلناً اسلامه . وقابله الرسول بترحاب وحفاوة وكان العباس يتولى السقاية بمكة . وارسل العباس اسرته الى المدينة وصحب هو الجيش الاسلامي . ووصل الجيش الى مر الظهران دون ان يكتشف المشركون

امره . وكان وصوله عندما خيم الظلام فأقاموا خيامهم وسمح عمر لهم لاول مرة ان يشعلوا النيران للاضاءة .

اعتنق ابو سفيان زعيم المشركين الاسلام واراد ان يؤمن اهل مكة على مصيرهم وكان الرسول رحيماً كريماً فقال : « من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن اغلق بابه فهو آمن » قال الرسول للعباس في أمر ابي سفيان : احبسه بمضيق الوادي حتى يرى جنود الله تمر . وقف ابو سفيان مع العباس في واد ضيق يشاهد كتائب المسلمين واسلحتهم المختلفة وكان العباس يذكر له اسماء القبائل فكان ابو سفيان يبدي تعجبه من كثرة عددها ، ودقة نظامها وحماسة جندها فقد كان المسلمون قد تقدموا كثيراً في الفنون الحربية .

ثم امر الرسول في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والانصار فقال ابوسفيان : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ فقال العباس : هذا رسول الله في الانصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل لقد اصبح ملك ابن اخيك اليوم عظيماً ، فقال العباس : يا ابا سفيان انها النبوة ثم نصحه العباس قائلا : النجاة الى قومك .

اسرع ابو سفيان الى مكة ليخبر اهلها بما شاهده من قوة الرسول والمسلمين وما عرضه الرسول عليهم من أمان ويبين لهم عبث المقاومة فصاح فيهم : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن . ولما كان ابو سفيان الد اعداء الرسول فقد كان لكلماته اثرها في نفوس اهل مكة فلم يفكروا في المقاومة وباتوا ينتظرون قدوم محمد الى مكة .

تقدم الرسول الى ابواب مكة ممتطياً ظهر ناقته وعن يمينه سار ابو بكر وسار خلفه اسامة بن زيد ، دخل محمد ابواب مكة عند شروق الشمس لا

كدخول المنتصر الفائز بل دخول حاج ورع في ملابس الاحرام وهو يرتل الآيات القرآنية الكريمة (انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً) .

اتجه الرسول الى الكعبة حيث تذكر احداث الماضي وكيف كانت الكعبة مكاناً مقدساً عند الاجداد وبيت الله الحرام وطاف الرسول حول هـذا المكان المقدس سبع مرات وفي كل مرة يلمس الحجر الاسود واراد الرسول ان يدخل الكعبة ولكن عثمان بن طلحة كان قد اغلق ابوابها . واراد علي بن ابي طالب ان ينتزع المفاتيح من عثمان ، ولكن الرسول امره بإعادتها الى عثمان ، وكان يتولى حجابة الكعبة وتأثر عثمان من عطف الرسول فأعلن اعتناقه الاسلام واستمر يتولى الحجابة .

تفرغ الرسول لتطهير الكعبة مما حولها من اوثان وكان عددها يبلغ ثلثمائة وستين صنماً ، فقام المسلمون بتحطيمها . وكان هبل اكبر هذه الاوثان وكان المشركون قد جلبوه من البلقان في سوريا يؤمنون انه قادر على انزال المطر الذي كان يهتم بنزوله سكان الصحراء القاحلة . كما كان هناك اوثان تمثل ابراهيم واسماعيل وفي ايديهما الازلام ، وقال الرسول عن تمثال ابراهيم : قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالازلام ، وكانت هناك لوحات تصور الملائكة على صورة نساء جميلات فحطم الرسول هـذه اللوحات . وعثر الرسول على صورة لحمامة منحوتة على الخشب فحطمها بيديه والقى بها على الارض باعتبارها من مظاهر الوثنية .

وحطم صحابة الرسول باقي التماثيل والاصنام ، وهو يقول (وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً) (١) .

---

(١) سورة الاسراء آية ٨١ .

ومن الكعبة اتجه الرسول نحو بئر زمزم ، وكان العرب يقدسونها ، فقد فجر المولى عز وجل هذه البئر لينقذ هاجر وابنها اسماعيل من الموت عطشاً ، وتوارث العرب تقديس هذه البئر . حتى اذا اقترب الرسول من البئر قدم له العباس شربة ماء من البئر حتى اذا شربها اصبح ذلك سنة يتبعها المسلمون . وولى الرسول عمه ابا العباس منصب السقاية .

وعند الظهر امر الرسول احد المسلمين بأن يؤذن للصلاة من فوق الكعبة واتبع المسلمون هذه السنة واتجه الرسول بصلاته الى الكعبة قبلة جميع المسلمين في كل مكان وزمان .

تحدث الرسول الى اهل مكة فأبدى رحمة وعطفاً وشرح لهم تعاليم العقيدة الاسلامية واعلن انتصار المسلمين وتعالت صيحات المسلمين « الله اكبر ، الله اكبر ، لا اله الا الله محمد رسول الله » ، وبعد ان انتهى الرسول من الشعائر الدينية نزل من على جبل الصفا وقدم اليه اهل مكة رجالا ونساء يمرون امامه يعلنون اعتناقهم الاسلام ونبذهم الوثنية .

وكان الرسول رحيماً عطوفاً فقد قدم اليه زعماء قريش يستنظرون حكمه عليهم فقال لهم الرسول : يا معشر قريش ما ترون اني فاعل بكم ؟ فقالوا : خير اخ كريم وابن اخ كريم . فقال الرسول : اذهبوا فانتم الطلقاء .

ودلت تصرفات الرسول في مكة على انه نبي مرسل لا على انه قائد مظفر . فقد ابدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم انه اصبح في مركز قوي ، ولكن توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو » (١) .

ولم يكتف الرسول بتطهير الكعبة ومكة من الاصنام بل ارسل بعض القواد المسلمين على رأس فرق من الجند ليقضوا على الوثنية بين القبائل المختلفة في المدن والقرى المجاورة وينشروا الاسلام .

---

(١) ارفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ٢٢٩ .

كان فتح مكة واستيلاء المسلمين على الكعبة من اكبر العوامل التي ساعدت على نجاح الدعوة الاسلامية ، فقد اعتقدت القبائل العربية التي رفضت الدعوة بادىء ذي بدء ودخلوا فيه افواجاً وعرفت سنة تسع الهجرية بعام الوفود لان عدداً كبيراً من القبائل العربية وسكان المدن ، اخذت تفد في هذه السنة وفوداً على الرسول تعلن اعتناقها الاسلام في حضرته ثم عادوا الى بلادهم بالجوائز التي اعتاد الرسول ان يمنحها لوفود القبائل العربية(١) .

حج أبي بكر بالمسلمين الى الكعبة :

كانت الوفود لا تزال تقدم الى المدينة ، تعلن اسلامها ، ويلقنها الرسول تعاليم الاسلام . واقترب موعد الحج ، ولم يستطع الرسول ان يخرج بالمسلمين الى الحج ، فالوفود تقدم تباعاً ، ولا يزال في شبه الجزيرة العربية من لم يؤمن بعد بالله ورسوله . وما يزال بها بعض الكفار واليهود ، والكفار على ما كانوا عليه في الجاهلية ما يزالون يحجون الى الكعبة في الأشهر الحرم ، والكفار نجس. فليبق الرسول اذاً بالمدينة حتى يتم الله كلمته وحتى يأذن الله له بالحج الى بيته ، وليخرج أبو بكر في الناس حاجاً (٢) .

كان المشركون لا يزالون يحجون الى بيت الله الحرام ، وكان لا بد أن تتخلص الكعبة من قدوم هؤلاء المشركين كما تخلصت بالأمس من الأصنام ومظاهر الوثنية .

خرج أبو بكر أميراً للحج ، على رأس ثلثمائة حاج ، يصحبون عشرين من الابل للتضحية بها عند الكعبة وبعد فترة قصيرة ، أمر رسول الله علي ابن ابي طالب أن يمتطي ظهر « الاضحى » احدى الابل السريعة ، وأن يسرع في طريقه الى مكة ، حتى يصل اليها قبل قدوم الحجاج من جميع أرجاء بلاد العرب ، ليبلغهم سورة من القرآن الكريم نزل بها الوحي .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٤ — ٩٥ .

(٢) هيكل : حياة محمد ص ٤٥٥ .

وقام علي بن أبي طالب بالمهمة خير قيام ، فوصل الى مكة قبل الوقوف على عرفة . وحينما اجتمع المسلمون في منى ، وقف علي يعلن أن الرسول قد بعثه ليبلغهم سورة التوبة التي نزل بها الوحي ، وهي تبدأ بهذه الآيات الكريمة : (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين . فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم . وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين) (١) .

وجاء في السورة نفسها : (يأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم) (٢) .

قال علي بن أبي طالب : أيها الناس ، انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو الى مدته . وأجل على الناس أربعة أشهر بعد ذلك ليرجع كل قوم الى بلادهم . ومن يومئذ لم يحج مشرك ، ولم يطف بالكعبة عريان .

(١و٢) سورة التوبة .

حجة الوداع :

أبدى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، رغبته في الحج ، ولم يكن الرسول قد حج بعد الحج الأكبر وان يكن قد اعتمر فأدى الحج الأصغر قبل ذلك مرتين وأسرع المسلمون من جميع أرجاء بلاد العرب يلبون نداء الرسول . وامتلأت طرقات المدينة بالقبائل العربية التي قدمت من سائر المدن والقرى والجبال ، وامتلأت الوديان المجاورة بخيامهم ، وكان هذا مظهراً رائعاً لانتصار العقيدة الاسلامية .

خرج الرسول مع آلاف من المسلمين ، وصحبوا عدداً كبيراً من الابل ، وقد زينوها ليذبحوها عند الكعبة . وكان الرسول في طريقه من المدينة الى مكة يتوقف عند كل مسجد ليؤدي الصلاة ، وهو يرفع صوته بالدعاء والشكر لله .

قضى المسلمون الليلة الأولى بعد رحيلهم من المدينة في قرية ذي الحليفة حيث أحرم الرسول والمسلمون وتركوا سلاحهم . وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، بعد أداء صلاة الفجر ، امتطى الرسول ظهر ناقته (القصواء) حتى اذا وصل الى وادي بيضة تيجه الرسول الى ربه ونادى ملبياً ، والمسلمين من ورائه : « لبيك اللهم لبيك . لا شريك لك لبيك . الحمد والنعمة والشكر لك لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك » .

وهذا الدعاء ، كما تذكر الروايات ، هو الذي توجه ابراهيم به من أعلى جبل أبي قبيص ، قرب مكة ، مبشراً بالدين الصادق . وتذكر الروايات أيضاً أن صوت ابراهيم كان من القوة بحيث سمعه كل كائن حي في العالم ، بل سمعه الجنين في الرحم فقال : لبيك اللهم لبيك .

ولما بلغ المسلمون سرف ، وهي محلة في الطريق بين المدينة ومكة ، قال محمد لأصحابه : من لم يكن منكم معه هدي فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه هدي فلا .

مضى الحجاج في طريقهم ، وقد انتشروا في مساحة كبيرة تبلغ عدة أميال فوق الجبال والوديان ، يتردد فيها نداؤهم وصلاتهم ، ولم يعد هناك أعداء يرهب المسلمون جانبهم ، فقد انتشر الاسلام في كل مكان في الجزيرة العربية. واتخذ الرسول نفس الطريق الذي اتبعه عند فتح مكة ، وما لبث أن دخلها من باب بني شيبة .

أراد الرسول أن تكون مناسك الحج مثلا يحتذيه المسلمون في السنوات التالية وقد وصل الحجاج الى مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة ، وتقدم الرسول والمسلمون الى الكعبة . فاستلم الرسول الحجر الأسود فقبله ، وطاف بالبيت سبعاً هرول في الثلاث الأول منها على نحو ما فعل في عمرة القضاء . وبعد أن صلى عند مقام ابراهيم عاد فقبل الحجر الاسود مرة أخرى ، ثم خرج من المسجد الى ربوة الصفا ، ثم سعى بين الصفا والمروة .

وبعد أيام قليلة من وصول الرسول الى مكة ، لحق به علي بن أبي طالب بعد عودته من اليمن ، ويذكر الطبري أن علياً لم يكن معه هدي يضحي به فأشركه في هديه ونحر الرسول الهدي عنهما .

وفي الثامن من ذي الحجة ، يوم التروية ، ذهب محمد صلى الله عليه وسلم الى منى ، فأقام بخيامه فيها ، وصلى فروض يومه ، وقضى الليل حتى مطلع فجر يوم الحج ، فصلى الفجر وركب ناقته القصواء حين أشرقت الشمس ، وتوجه بها نحو جبل عرفات ، يتبعه المسلمون . حتى اذا غربت الشمس ، اتجه الرسول الى بطن الوادي من أرض عرفة ، وهناك نادى في الناس : أيها الناس ، اسمعوا قولي فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً .

فقد شعر الرسول بقرب منيته ، وأن هذه الحجة هي حجة الوداع . فرأى أن يثبت تعاليم الاسلام في عقول وقلوب المسلمين . ولم يكتف الرسول

بأن لقن المسلمين تعاليم الاسلام ، بل لقنهم قواعد السلوك والاخلاق ومعاملة الناس .

ختم الرسول خطبته بقوله : «فاعقلوا أيها الناس قولي فاني قد بلغت وتركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً : كتاب الله وسنة رسوله . أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه . تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين اخوة فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن انفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ » .

حتى اذا انتهى الرسول من خطابه ، نزل عن ناقته القصواء ، وأقام حتى صلى الظهر والعصر ، ثم امتطاها حتى بلغ الصخرات ، حيث تلا على المسلمين الآية الكريمة : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) (١) وأدرك أبو بكر وبعض المسلمين أن الرسول موشك على لقاء ربه ، مما أثار حزنهم .

غادر الرسول عرفات ، وقضى ليلة بالمزدلفة ، وصلى بها الرسول العشاء ثم الفجر في اليوم التالي ، ثم امتطى ناقته وبلال يقودها ، وأسامة على عجزها رافعاً ثوباً يظله به من الحر . واتجه الرسول نحو وادي منى ، ليرمي بحصيات سبع كلا من الأعمدة الثلاثة القائمة هناك والمعروفة بالجمرات احياء لذكرى ابراهيم الذي رمى بحصيات الشيطان الذي حاول ثلاثاً أن يوقفه في هذا المكان .

اعتق الرسول ثلاثة وستين عبداً ، ونحر بيده ثلاثة وستين بعيراً ، وأمر علي ابن أبي طالب أن يوزع لحومها وجلودها على فقراء الحجاج . وقام معمر بن عبد ليحلق رأس الرسول ، وبدأ بالشق الأيمن وانتهى بالشق الأيسر ثم طاف

---

(١) سورة المائدة .

الرسول بالكعبة مرة أخرى وقدم له عمه العباس بن عبد المطلب ، الذي كان يتولى السقاية ، شربة ماء من بئر زمزم . ثم بدأ الرسول والمسلمون رحلتهم الى المدينة المنورة ، مغادراً مكة موطنه الأصلي على رأس قافلة الحجاج .

حتى اذا اقترب الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة المنورة صاح : (الله أكبر ، لا اله إلا الله ، وحده لا شريك له ، مالك الملك له الحمد والشكر ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده) . وهكذا انتهت حجة الوداع ، وهي آخر مرة يحج فيها الرسول .

* * *

١٤ ـ الكعبة قبلة الصلاة

فرض الصلاة :

بعد التوحيد ، كانت الصلاة ، وما يستتبعها من طهارة ، أول شرائع الاسلام ، فيقول الطبري(١) : «كان أول شيء فرض الله عز وجل من شرائع الاسلام عليه ــ أي على الرسول صلى الله عليه وسلم ــ بعد الاقرار بالتوحيد، والبراءة من الأوثان والأصنام ، وخلع الأنداد ، الصلاة » .

أتى جبريل عليه السلام ، الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي ، فانفجرت منه عين ، فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله ينظر اليه ، ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما رأى جبريل يتوضأ ، ثم قام به جبريل فصلى به ، وصلى الرسول بصلاته ، ثم انصرف جبريل عليه السلام » (٢) .

ثم توجه الرسول عليه الصلاة والسلام الى بيته ، حيث التقى بخديجة ، فتوضأ أمامها ليريها كيف الطهور للصلاة كما علمه جبريل ، فتوضأت ، ثم صلى بها الرسول كما صلى به جبريل عليه السلام ، فصلت بصلاته(٣) .

ثم كان اسلام علي بن ابي طالب ، واقامته الصلاة خلف الرسول . وكان علي حينئذ في العاشرة من عمره ، مقيماً في بيت الرسول ، في كفالته ، اذ أراد

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٣ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٠ .
(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٤ .

الرسول أن يخفف عن عمه أبي طالب ؛ وكان ذا عيال كثير ، وكانت قريش تمر بأزمة شديدة(١) رأى علي الرسول وخديجة يصليان فعجب مما رآه ، حتى اذا انتهيا من الصلاة ، توجه اليهما بالسؤال عن سبب سجودهما ، فأخبره الرسول أنهما يسجدان لله عز وجل ، الذي اصطفاه رسولا ونبياً ، وأمره أن يدعو الناس الى عبادته ، سبحانه وتعالى . ودعا محمد ابن عمه الى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، والى اعتناق الاسلام والى نبذ عبادة الأوثان ، وتلا محمد بعض آيات القرآن الكريم ، فأخذ علي باعجاز هذه الآيات وجمالها ، وطلب علي من الرسول أن يمهله حتى يشاور أباه أبا طالب فطلب الرسول منه أن يتكتم الأمر . وقضى علي ليلة مضطربة ، أمعن فيها التفكير ، حتى اذا كان الصباح التالي ، أعلن علي للرسول ايمانه واسلامه .

الاسراء والمعراج :

أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس من ايلياء ، وقد فشا الاسلام بمكة في قريش ، وفي القبائل كلها . وكان في مسراه عبرة لأولي الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق ، وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين ، فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد(٢) .

روى الرسول عليه الصلاة والسلام ليلة الاسراء فقال (٣) : « بينما أنا في الحطيم ، مضطجعاً بين النائم واليقظان اذ أتاني آت فشق ما بين هذه الى

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٠ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٧ .
(٣) ابن الديبع الشيباني : تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول ج ٤ ص ٢٣٥-٢٣٨ . وهي رواية أنس بن مالك .

هذه – يعني ثغرة نحره الى شعرته – فاستخرج قلبي . ثم أتيت بطست من ذهب مملوء ايماناً ، فغسل قلبي . ثم خشي . ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة ، دون البغل وفوق الحمار ، أبيض ، هو البراق ، يضع خطوة عند أقصى طرفه ، فحملت عليه . فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى السماء الدنيا . فاستفتح . فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أوقد أرسل اليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، فنعم المجيء جاء . ففتح لنا فلما خلصت فاذا فيها آدم عليه السلام ، فقال : هذا أبوك آدم، فسلم عليه فسلمت عليه . فرد علي السلام ، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح النبي الصالح . ثم صعد بي الى السماء الثانية فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أوقد أرسل اليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ولنعم المجيء جاء ففتح لنا ، فلما خلصنا فاذا أنا بيحيى وعيسى وهما ابنا : الخالة . قال : هذا يحيى وعيسى عليهما السلام فسلم عليهما . فسلمت عليهما ، فردا علي السلام ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم صعد بي الى السماء الثالثة ، فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أوقد أرسل اليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به فلنعم المجيء جاء ، ففتح لنا ، فلما خلصنا فاذا يوسف عليه السلام . قال : هذا يوسف فسلمْ عليه ، فسلمت عليه ، فرد علي ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أوقد أرسل اليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح لنا . فلما خلصنا فاذا ادريس عليه السلام . فقال : هذا ادريس فسلم عليه فسلمت عليه ، فرد علي ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى السماء الخامسة ، فاستفتح : فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد .

قيل : أوقد أرسل اليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به فلنعم المجيء جاء . ففتح ، فلما خلصنا فاذا هارون عليه السلام . قال : هذا هارون ، فسلم عليه فسلمت عليه فرد علي . ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة . فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أوقد أرسل اليه ؟ قال : نعم . قيل مرحباً به ، فلنعم المجيء جاء ، ففتح علينا ، فلما خلصنا فاذا موسى عليه السلام . قال : هذا موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد علي . ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . فلما جاوزته بكى . فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته اكثر ممن يدخلها من أمتي . ثم صعد بي الى السماء السابعة . فاستفتح . فقيل : من هذا . قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أوقد أرسل اليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به فلنعم المجيء جاء . ففتح ، فلما خلصنا فاذا ابراهيم عليه السلام . قال : هذا أبوك ابراهيم فسلم عليه. فسلمت عليه فرد السلام . ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح .

« ثم رفعت الى سدرة المنتهى ، فاذا نبقها مثل قلال هجر ، واذا أوراقها مثل آذان الفيلة . قال : هذه سدرة المنتهى . واذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران . فقلت : ما هذان يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات . ثم رفع لي البيت المعمور ، ثم أتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل فأخذت اللبن . فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك .

ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم . فرجعت فمررت على موسى عليه السلام ، فقال : بم أمرت ؟ فقلت : بخمسين صلاة ، في اليوم والليلة . فقال : ان امتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، واني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة . فارجع الى ربك ،

فاسأله التخفيف لأمتك . فرجعت ، فوضع عني عشراً . فرجعت الى موسى . فقال : بم أمرت ؟ قلت : وضع عني عشراً . فقال مثله ، فلم أزل بين ربي وموسى ، حتى أمرت بخمس صلوات ، فرجعت الى موسى عليه السلام. فقال : ان أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قلت : قد سألت ربي حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم . فلما جاوزت موسى عليه السلام نادى مناد : أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي » .

وفي اليوم التالي ، قدم الرسول عليه الصلاة والسلام على قريش في مجلسهم عند الكعبة فأخبرهم بالاسراء والمعراج . فأكثر الناس في الحديث ، وقال بعضهم : هذا والله الإمر (١) البين ، والله ان العير لتطرد ، شهراً من مكة الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ، ويرجع الى مكة وذهب بعض الناس الى أبي بكر فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع الى مكة. فقال لهم أبو بكر : انكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس. فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ، فوالله انه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الارض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون هذه ، ثم أقبل حتى انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . فقال : يا نبي الله ، فصفه لي ، فاني جئته . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ، ويقول أبو بكر : « صدقت ، أشهد أنك رسول الله » كلما وصف له منه شيئاً ، حتى اذا انتهى الرسول عليه الصلاة والسلام قال أبو بكر : صدقت أشهد

---

(١) الامر : العجيب المنكر (بكسر الهمزة) .

أنك رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم لابي بكر : وانت يا أبا بكر الصديق(١) .

الكعبة قبلة المسلمين :

عند أول ظهور الاسلام ، كان للمسلمين حرية التوجه بصلاتهم الى أي مكان في المشرق والمغرب ، فيقول الله عز وجل : (لله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله ، ان الله واسع عليم) (٢) .

ثم كان المسلمون في المدينة يتجهون بصلاتهم الى بيت المقدس ، حتى أمر الله عز وجل أن تكون الكعبة قبلة المسلمين في صلاتهم ، فقال سبحانه وتعالى : (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) (٣) .

وقال عز وجل أيضاً : (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، لئلا يكون للناس عليكم حجة ، الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون) (٤) .

وغضب اليهود لتحول القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ، وحاولوا فتنة بعض المسلمين ، فقال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : (سيقول السفهاء

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٩ – ٤٠ .
(٢) سورة البقرة آية ١١٥ .
(٣) سورة البقرة آية ١٤٤ .
(٤) سورة البقرة آية ١٥٠ .

من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً . وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله) (١) .

* * *

(١) سورة البقرة الآيتان ١٤٢ و ١٤٣ .

١٥ ـ ابن الزبير يعيد بناء الكعبة

تهدم الكعبة :

أعلن الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير معارضتهما لتولي يزيد الخلافة الأموية بعد وفاة أبيه معاوية بن أبي سفيان اذ تحولت الخلافة من نظام الشورى والانتخاب الى النظام الملكي الوراثي . وأمر الخليفة يزيد بن معاوية واليه بالمدينة أن يأخذ البيعة له بالخلافة من الحسين وابن الزبير باعتبار أنهما في مقدمة زعماء المسلمين حينئذ . ورفض الزعيمان البيعة وخرجا الى مكة . ووجد ابن الزبير في مكة الأمن والطمأنينة التي افتقدها في المدينة ، واستطاع أن يكسب عطف المسلمين وتأييدهم حينما قال لهم : « اني عائذ بالبيت » .

لاذ ابن الزبير بالكعبة ، وسمى نفسه العائذ بالبيت ، وقام يصلي بجوار الكعبة ليلا ونهاراً ، فيطيل السجود ، ويكثر من التسبيح وذكر الله ، فأحبه المسلمون وأعجبوا بصلاحه وتقواه . وكان وجود ابن الزبير الى جوار الكعبة يتيح له فرصة اجتماعه بالمسلمين الذين يقدمون الى الكعبة للطواف والتبرك بها وأداء العمرة ، حيث يبث دعوته السياسية فيهم . ويثير فيهم روح السخط على يزيد والخلافة الأموية .

استفحلت حركة عبدالله بن الزبير ، ورأى الخليفة الأموي أن يقف منها موقفاً حاسماً . فبعث جيشاً بقيادة الحصين بن نمير لغزو الكعبة والقضاء على ابن الزبير وتحصن ابن الزبير وأنصاره بالكعبة ، بعد أن احكموا مراصد مكة . وأبدى المسلمون جميعاً سخطهم لاقدام الجيش الأموي على غزو الكعبة ومكة .

حاصر الجيش الأموي ابن الزبير في الكعبة . وقذفها الحصين بالمنجنيق ، فتهدمت أجزاء كثيرة منها . ثم امتدت اليها السنة من اللهب فحرقت أجزاء أخرى منها .

أذاع الأمويرن أن ابن الزبير هو المسؤول عما أصاب الكعبة ، على حين ألقى ابن الزبير وأنصاره التبعة على عاتق الأمويين . واختلف المؤرخون فيمن يقع عليه الاتهام .

أما المؤرخون الذين ألقوا بالمسؤولية على عاتق جند الشام ، ففي مقدمتهم المسعودي(١) الذي ذكر أن جند الشام هم سبب تهدم او حرق الكعبة . فوصف ما حدث فقال : « فتواردت أحجار المنجنيق والعرادات على البيت ، ورمي الاحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البنية » . ويوجه كل من اليعقوبي(٢) وابن عساكر(٣) وابن طباطبا (٤) الاتهام أيضاً الى جند الشام .

أما المؤرخون الذين وجهوا الاتهام الى جند ابن الزبير ، فمنهم الطبري(٥) فروى أن أصحاب ابن الزبير كانوا يوقدون حول الكعبة ناراً تطاير منها الشرر ، فاحترقت ثياب الكعبة وخشب البيت . ويتهم المؤرخ البلاذري(٦) أتباع ابن الزبير بأنهم تسببوا في حرق الكعبة . ولكن الطبري والبلاذري قصرا اتهامهما لجند ابن الزبير على اتهامهم بالتسبب في حرق الكعبة ، أما تهدمها فكان نتيجة قذف جند الشام لها بالحجار المنجنيق .

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٩ .
(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٤ .
(٣) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٧٣ .
(٤) الفخري ص ١٠٢ .
(٥) الطبري ج ٤ ص ٣٨٣ .
(٦) أنساب الاشراف ج ٤ ص ٥٣ .

ووقف بعض المؤرخين موقفاً محايداً ، ومنهم ابن الأثير (١) الذي ذكر روايتين عن احتراق الكعبة . فيقول في احداهما ان بعض الناس ذهبوا الى أن سبب حرق الكعبة يرجع الى ما كان من قذف جند الشام لها بالمجانيق ، على حين زعم آخرون أن « الكعبة قد احترقت من نار كان يوقدها أصحاب عبدالله حول الكعبة ، وأقبلت شرارة هبت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترقت ثياب البيت » ، ولكن ابن الاثير يميل الى تأييد الرواية الأولى .

وروى ابن كثير (٢) ثلاث روايات دون أن يرجح احداها فقال : «فلما كان يوم السبت ثالث ربيع الاول سنة ٦٤ نصبوا المجانيق على الكعبة ورموها بالنار ، فاحترق جدار البيت في يوم السبت . وقيل : انما احترقت لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار وهم حول الكعبة فسرت الى أخشابها وسقوفها فاحترقت . وقيل : انما احترقت لأن ابن الزبير سمع التكبير على بعض جبال مكة في ليلة ظلماء فظن أنهم أهل الشام فرفعت نار على رمح لينظروا من هؤلاء الذين على الجبل ، فعلقت النار في أستارها وأخشابها فاحترقت ،واسود الركن ، وانصدع في ثلاثة أمكنة منها » .

اما العمري (٣) فلا يتهم ابن الزبير أو القائد الأموي على السواء ، فيقول ان سبب حرق الكعبة « ان امرأة أرادت أن تجمر الكعبة ، فطارت شرارة من المجمرة في أستارها فاحترقت » .

وقد حفظ التاريخ لنا رواية عبد الله بن الزبير عن سبب حرق الكعبة فيروي ابن قتيبة (٤) أنه حين طلب الحصين بن نمير من ابن الزبير ، بعد موت يزيد أن يسمح لجند الشام بالطواف بالبيت ، قال ابن الزبير له : وهل تركتم من

---

(١) الكامل ج ٤ ص ٥٢ .
(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٥ .
(٣) مسالك الأبصار ج ١ ص ٩٥ .
(٤) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨ .

البيت الا مدرة ، وكانت المجانيق قد أصابت ناحية البيت فهدمته ، مع الحريق الذي أصابه . ونحن نميل الى الرأي القائل أن قذف الكعبة بأحجار المنجنيق قد نتج عنه اشتعال النيران بالكعبة .

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة :

رحل القائد الحصين بن نمير بجيشه الأموي الى الشام بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية ، تاركاً الكعبة وقد تهدمت معظم أجزائها ، فأصبح أمر اعادة بنائها من شأن عبدالله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة في بلاد الحجاز . فهدم ما تبقى منها سليماً وأعاد بناءها من جديد . وقد عاد ذلك عليه بالفائدة والضرر في وقت واحد .

فقد غضب المسلمون على جند الشام أن تسببوا في تهدم الكعبة ، كما انتهكوا حرمتها اذ قذفوها بالاحجار ، وحمدوا لعبد الله بن الزبير قيامه باعادة بنائها فروى المؤرخ ابن الأثير(١) : « لما احترقت الكعبة حين غزا أهل الشام عبدالله ابن الزبير أيام يزيد تركها ابن الزبير يشنع بذلك على أهل الشام » . ثم أعاد ابن الزبير بناء الكعبة ، ولكن بعض المسلمين لم يرضوا عن أن ابن الزبير قد أحدث تغييرات على البناء الأول .

أثارت رغبة ابن الزبير في اعادة بناء الكعبة مشكلة كبرى له ، فقد حار في الطريقة التي يتبعها في بنائها من جديد : أيهدم الكعبة تماماً ثم يعيد البناء من جديد ؟ أم يحاول اصلاحها وترميمها ؟ وروى العمري(٢) حوار ابن الزبير مع أصحابه حينما حاولوا حل هذه المشكلة المعقدة ، فقال : « فشاور ابن الزبير

---

(١) الكامل جـ ٤ ص ٨٧ .
(٢) مسالك الابصار جـ ١ ص ٢٥ – ٢٦ .

من حضره في هدمها ، فهابوا ذلك ، وقالوا : نرى أن يصلح ما وهى منها ولا تهدم . فقال لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له الا بأكمل اصلاح ، ولا يكمل اصلاحها الا بهدمها . فهدمها حتى أفضى الى قواعد ابراهيم ، فأمرهم أن يزيدوا في الحفر ، فحركوا حجراً منها فرأوا تحته ناراً وهولا أفزعهم ، فبنوا على القواعد ، وتمم بناءها وألصق بابها بالأرض وعمل لها خلفاً أي باباً من ورائها وأدخل الحجر فيها » .

وبذل ابن الزبير جهده في تجميل الكعبة حتى تبدو في أجمل مظهر . وعدد المسعودي (١) جهود ابن الزبير في ذلك فقال : « وحمل الى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التي كان بناها أبرهة الحبشي في كنيسته التي اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث اساطين من رخام فيها وشي منقوش ، قد حشي النقش السندروسي وأنواع الالوان من الصباغ ، فمن رآه ظنه ذهباً » .

عاب الأمويون على ابن الزبير هدمه الكعبة ، وزعموا أنه كان بوسعه ترميمها واصلاحها ، ولكننا لا نوافق على ما ذهبوا اليه ، فقد « كانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق» (٢) مما يجعل ترميمها عسيراً ، اذ قد تنهار جدران الكعبة في أي وقت على من فيها . وكان من الضروري ضمان سلامة هذه الجدران ، فقد كانت الكعبة مقصد آلاف المسلمين كل عام ، حيث يتوافدون ويتزاحمون للطواف والتبرك بها . كما أن العمري يذكر أنه سبق هدم واعادة بناء الكعبة قبل ابن الزبير ثلاث مرات .

انتقد الأمويون ابن الزبير لأنه أحدث تغييرات في بناء الكعبة ، فقد زاد في ارتفاعها تسعة أذرع فأصبح ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً ، كما جعل للكعبة بابين بعد أن كان لها باب واحد . وضرب عليها السور وأدخل فيها

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٨٧ .

الحجر . وعابوا عليه أنه كان « أول من كسا الكعبة الديباج وكانت كسوتها المسوح والانطاع ، وقد كان يطيبها حتى يوجد ريحها من داخل الحرم »(١) . ولكننا لا نوافق هؤلاء على بعض ما عابوه على ابن الزبير . فان وجود بابين يسهل الدخول الى الكعبة والخروج منها . كما أن المصادر القديمة تذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد من ارتفاع الكعبة الى الحد الذي وصل اليه ابن الزبير . كما أن ابن الزبير لم يكن يدفعه فيما فعل سوى مرضاة الله والرسول والمسلمين .

وقد سوغ المؤرخ المسعودي (٢) زيادات ابن الزبير في الكعبة فقال : « وشرع ابن الزبير في بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخاً من قريش أن قريشاً حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس ابراهيم الخليل الذي اسسه هو واسماعيل عليهما السلام ، فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ، وجعل له بابين : باباً يدخل منه وباباً يخرج منه » .

ويذكر العمري (٣) أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد في بناء الكعبة ما زاده ابن الزبير ، فقال : وذلك لأن خالته عائشة ، رضي الله عنها حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألم تر أن قومك قصرت بهم النفقة حين بنوا الكعبة فاقتصروا على قواعد ابراهيم . ثم قال : لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفاً وألصقت بابها بالارض وأدخلت فيها الحجر . فقال ابن الزبير : فليس بنا عجز عن النفقة . فبناها على مقتضى حديث عائشة » .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٤١٣ .
(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٩ — ٣٠ .
(٣) مسالك الابصار ج ١ ص ٩٥ .

ومهما يكن من أمر ، فقد احتفظت الكعبة بالشكل الذي أعاد ابن الزبير بناءها عليه ، حتى حاصر الحجاج بن يوسف الثقفي الكعبة الحصار الثاني في عهد عبد الملك بن مروان .

الحجاج الثقفي والكعبة :

انتشرت دعوة ابن الزبير في أرجاء الدولة الاسلامية ، ونجح في السيطرة على جميع أمصارها عدا بلاد الشام التي احتفلت بولائها للخلافة الاموية . ونجح الخليفة الأموي مروان بن الحكم في انتزاع مصر من ولاة ابن الزبير . ثم نجح ابنه عبد الملك في الاستيلاء على بلاد العراق وقتل مصعب بن الزبير ، ثم بعث بقائده المشهور الحجاج بن يوسف الثقفي على رأس جيش كبير الى بلاد الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير .

وبدأ الحجاج في مناوشة عبد الله بن الزبير ليقف على قوته الحقيقية ، وليبث الرهبة والخوف في نفوس انصار ابن الزبير ، « فكان يبعث البعوث الى عرفة في الحل ، ويبعث ابن الزبير بعثاً فيقتتلون هنالك ، ففي كل ذلك تهزم خيل ابن الزبير وترجع خيل الحجاج بالظفر » (١) .

أدرك الحجاج ضعف جند ابن الزبير ، ولذا عزم على المسير اليه ، فبعث الى الخليفة عبد الملك بن مروان يستأذنه في قتال ابن الزبير وحصار الكعبة ويخبره بضعف ابن الزبير وتفوق أصحابه ويطلب منه الامداد (٢) . فلما وصل كتاب الحجاج الى عبد الملك كبر وكبر معه من كان في داره ثم كتب عبد الملك الى طارق بن عمرو يأمره بأن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج فسار في خمسة آلاف من أصحابه حتى لحق به .

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٠ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ١٤٦ .

تقدم القائدان نحو مكة ، فبلغوها في ذي القعدة سنة ٧٢ هـ في الوقت الذي كان المسلمون يستعدون فيه لأداء فريضة الحج فنزل بقرب بئر ميمون ، وحج بالناس ولكنه لم يستطع الطواف بالكعبة أو السعي بين الصفا والمروة حيث منعه عبدالله بن الزبير من ذلك، كما لم يستطع ابن الزبير وأنصاره أداء فريضة الحج ، حتى اذا قارب موسم الحج من الانتهاء ، بدأ الحجاج يقذف الكعبة بالأحجار .

بعث عبدالله بن عمر بن الخطاب الى الحجاج الثقفي ينهاه عن قذف الكعبة بالاحجار ويقول : اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس ، فانك في شهر حرام وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار الارض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً . وان المنجنيق قد منعهم عن الطواف ، فاكفف عن الرمي حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة (١) . ورأى الحجاج أن ينتظر حتى ينتهي الناس تماماً من الحج .

فرغ موسم الحج ، فنادى الحجاج في الناس أن ينصرفوا الى بلادهم التماساً للسلام والنجاة من الاحجار التي يعزم الحجاج أن يقذفها على ابن الزبير . ثم بدأ الحجاج ينفذ وعده . وكان الوقت حينئذ شتاء ، فأخذت السماء تبرق وترعد ، ونزلت صاعقة على جيش الحجاج فقتلت عدداً كبيراً منهم . وشعر جند الشام بالخوف ، فقد اعتبروا هذه الصاعقة مظهراً لغضب السماء لانتهاكهم حرمة بيت الله الحرام ، ولذا أمسك الشاميون عن قذف الاحجار ، وخشي الحجاج من عواقب تخاذل جنده ، فأقبل عليهم يشجعهم ، ويثير حماستهم ، وأخذ يقذف الاحجار بنفسه . وشاءت المقادير أن تعين الحجاج فنزلت صاعقة على جند ابن الزبير فقتلت كثيراً منهم ، فخطب الحجاج في هذه فقال : ألا ترون أنهم يصابون ، وأنتم على الطاعة وهم على خلاف الطاعة(٢) ؟

---

(١) المصدر السابق .
(٢) الطبري جـ ٥ ص ٣٠ .

وأخذت الأحجار تتكاثر على الكعبة حيث اعتصم عبدالله بن الزبير وأصحابه ، فكانت تصيب مقتلا من كثير من رجاله ، فرأوا أنه لا طائل من وراء المقاومة ، وأن مصيرهم الموت اذا استمروا في القتال ، فخرج كثير منهم الى الحجاج بن يوسف يطلبون منه الأمان ، فأجابهم الى طلبهم ليشجع غيرهم على نبذ القتال .

واستمر عبد الله بن الزبير في مقاومة هجوم الجيش الأموي ، ولكن ما لبث أن أصابه حجر في جبهته ، فأنشد(١) :

يا رب ان جنود الشام قد كثروا   وهتكوا من حجاب البيت استارا
يا رب اني ضعيف الركن مضطهد   فابعث الي جنوداً منك انصارا

وسرعان ما تكاثر جند الشام على عبدالله بن الزبير وانصاره من كل باب ، فسقط ابن الزبير صريعاً ، وتفرق أنصاره يبتغون السلامة والنجاة ، وكان مصرعه في ١٤ جمادى الأول سنة ٧٣ هـ .

أعاد الحجاج بناء الكعبة وجعلها كما كانت قبل التجديد الذي أحدثه عبدالله ابن الزبير بعد حصار الكعبة الأول . وجعل الحجاج للكعبة باباً واحداً كما أمره الخليفة عبد الملك بن مروان (٢) . وصف العمري (٣) موقف عبد الملك والحجاج من اعادة بناء الكعبة فقال : « ولما قام عبد الملك بن مروان في الخلافة قال : لسنا من تخليط أبي خبيب بشيء (يعني عبدالله بن الزبير) فهدمها(اي الكعبة) وأعادها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا في ارتفاعها . ثم جاءه الحارث بن أبي ربيعة المخزومي ومعه رجل آخر ، فحدثاه عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديث المتقدم ؛ فندم وجعل ينكت بمخصرة في يده الأرض ، ويقول وددت أني تركت أبا خبيب

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٧ .
(٢) الطبري ج ٥ ص ٣٥ .
(٣) مسالك الأبصار ج ١ ص ٩٧ .

وما تحمل من ذلك . وتولى البناء في زمن عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي ، وهو البناء الخامس الموجود الآن (أي في زمن العمري) والذي هدمه الحجاج هو الزيادة وحدها . وأعاد الركنين ، وسد الباب الذي فتحه ابن الزبير ، وسده بيّن الى الآن ، وجعل في الحجر من البيت دون سبعة أذرع ، وعلامة ذلك في داخل الحجر لوحان من مرمر منقوشان متقابلان في الجانبين وصار عرض وجهها ، وهو الذي فيه الباب ، أربعة وعشرين ذراعاً » .

بناء عبد الملك قبة الصخرة :

اتخذ عبدالله بن الزبير الحجاز مركزاً لحركته السياسية ولخلافته . وكان المسلمون يقدمون الى الكعبة في مواسم الحج والعمرة ، فيلقون ابن الزبير ، فكانوا لا يجدونه الا قائماً بالصلاة أو طائفاً بالكعبة ، ونجح في أن يبهر انظارهم بزهده وبساطته وصلاحه وتقواه . فقارن أهل الشام بين ما شاهدوه من ابن الزبير وبين مظاهر الملك والترف التي عاشها الخلفاء الأمويون . وانتهز ابن الزبير فرصة قدوم هؤلاء الحجاج . فأخذ يبث دعوته فيهم ، ودعاهم لمناصرته وتأييده . وكان هؤلاء الحجاج والمعتمرون لا يعودون الى بلادهم الا وتحدثوا عما رأوه من أحوال ابن الزبير مشيدين بفضائله ، معددين سجاياه ، مما أدى الى انتشار دعوة ابن الزبير في شتى أرجاء الدولة العربية الاسلامية .

وكان ابن الزبير لائذاً بالكعبة ، يسمي نفسه « العائذ بالبيت » مما أثار عطف المسلمين عليه ، وزاد من عطفهم عليه ، كما أثار العاطفة الدينية عامة اقدام الخلفاء الامويين على غزو مكة وحصار الكعبة وقذفها بالمنجنيق . في نفس الوقت الذي استمات فيه ابن الزبير في الدفاع عن الكعبة . وقدمت جماعات عديدة من المسلمين تحالف ابن الزبير لتقف الى جانبه في صد الجيوش الاموية عن غزو الكعبة ومكة ، فقد قدمت الخوارج الأزارقة ، وقدم المختار بن عبيد الثقفي زعيم الشيعة بالعراق ، بل بعث نجاشي الحبشة فرقة من جنده تدافع

عن الكعبة . وكان بعض المسلمين حين يقدمون الى مكة للحج أو الاعتمار ، ويستمعون لآراء ابن الزبير يعلنون تأييدهم له وينضمون الى حركته ولا يعودون الى بلادهم بل ان كثيراً من أهل الشام تظاهروا بالخروج الى الحجاز للحج ، وانضموا الى ابن الزبير .

شعر عبد الملك بن مروان بخطورة اقامة ابن الزبير في مكة الى جانب الكعبة وحاول صرف المسلمين عن الرحيل الى مكة كيلا يلتقوا بابن الزبير ، ولكنه لم يكن بقادر أن ينهاهم عن اداء فريضة الحج وهي من أركان الاسلام . وأخذ يبحث عن حل آخر ، حتى توصل الى فكرة بناء قبة الصخرة .

بنى عبد الملك قبة الصخرة في بيت المقدس ودعا المسلمين الى الحج اليها ، ونهاهم عن الحج الى الكعبة في مكة . وروى المؤرخ اليعقوبي(١) تاريخ هذا الحدث فقال : « ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم اذا حجوا بالبيعة . فلما رأى عبد الملك ذلك ، منعهم من الخروج الى مكة فضج الناس ، وقالوا : تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا . فقال لهم : هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام ، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد الى السماء تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج وأقام لها سدنة ، وأخذ الناس يطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة ، وأقام بذلك أيام بني أمية » .

ويؤيد الروحي(٢) هذه الرواية فيقول : « فلما ولي عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج من أن ابن الزبير كان يأخذ الناس بالبيعة اذا حجوا ،

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٧ — ٨ .
(٢) بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء ص ٢٠٢ .

فضج الناس لما منعوا الحج ، فبنى عبد الملك قبة الصخرة ، وكان النـــاس يحضرونها يوم عرفة ويقفون عندها » .

كان اليعقوبي أول مؤرخ روى قصة بناء عبد الملك قبة الصخرة ، أما الروحي(١) فلا شك في أنه نقل هذه الرواية عنه . ولكن الطبري والمسعودي وابن الأثير وابن قتيبة لم يتحدثوا عن هذه القصة . ويذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن الوليد بن عبد الملك هو الذي بنى قبة الصخرة . وذهب بعضهم مذاهب أخرى ، منها أنها من بناء هيلانة أم قسطنطين معتمدين في ذلك على أن بناء هذه القبة لايتمشى مع الفن العربي ، وانما هو مطابق للفن البيزنطي ولكن معظم المؤرخين المحدثين يؤيدون الرواية القائلة بأن عبد الملك هو الذي بنى قبة الصخرة ،ويميلون الى الأخذ برواية اليعقوبي ، ويعتمدون في ذلك على أن النقش الموجود على قبة الصخرة يقطع بأن تاريخ البناء هو سنة ٧٢هـ. أي في عصر عبد الملك .

* * *

(١) انظر كتابنا (عبدالله بن الزبير) تجد كثيراً من التفاصيل .

١٦ ــ اهتمام الدول الاسلامية بالكعبة

في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين :

اهتم الخلفاء الراشدون بالمسجد الحرام المحيط بالكعبة ، فيذكر العمري(١) « كان المسجد الحرام ، أعني المحيط بالكعبة فناء لها وفضاء للطائفين ولم يكن له على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر جدار يحيط به فضيق الناس على الكعبة وألصقوا دورهم بها . وكانت الدور محدقة بالكعبة وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية » . حتى اذا تولى عمر بن الخطاب الخلافة قال : لا بد لبيت الله من فناء ، وانكم دخلتم عليه ، ولم يدخل عليكم . فوسع المسجد ، واشترى الدور المحيطة بالكعبة وهدمها وزادها في المسجد واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة ، ووضع فيه القناديل .

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة ، ابتاع عدة منازل وهدمها ووسع المسجد وبنى الأروقة للمسجد . وزاد عبدالله بن الزبير في مساحة المسجد واشترى منازل بأكثر من عشرة آلاف دينار . وجعل في المسجد عمداً من الرخام .

واهتم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بعمارة المسجد الحرام ، وان لم يزد فيه ، ورفع جداره ، وجلب اليه السواري على سفن رحلت في البحر الأحمر الى جدة ، وسقفه بالساج .

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٠٥ .

ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ، بعث الى واليه على مكة خالد ابن عبد الله القسري بستة وثلاثين ألف دينار ، فضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب ، وعلى الميزاب ، وعلى الاساطين في جوف الكعبة ، وعلى أركانها . ولذا يذكر المؤرخون أن الخليفة الوليد هو « أول من ذهب البيت في الاسلام » (١) . وكان عبد المطلب في العصر الجاهلي قد حلى الكعبة بغزالين ذهبيين كان قد عثر عليهما في بئر زمزم عند قيامه باعادة حفرها ، فضربهما في أبواب الكعبة .

وذكر العمري أن الذهب الذي بعثه الوليد بن عبد الملك لتحلية الكعبة مصدره مائدة سليمان بن داود ، وكانت من الذهب والفضة ، وقد حملت اليه من طليطلة في الاندلس ، وكان لها أطواق من الزبرجد والياقوت .

كما أمر الوليد بفرش جوف الكعبة بالرخام الأبيض والأخضر ، كما وزر جدران الكعبة بالرخام . واهتم الوليد أيضاً بتوسيع المسجد الحرام ، وبعث اليه بالرخام والاحجار اللازمة من بلاد الشام .

في العصر العباسي :

اهتم الخلفاء العباسيون بالكعبة وسائر الاماكن المقدسة في مكة والمدينة وحرصوا على تيسير الحج ، وانشاء الطرق والبريد بين مكة والمدينة وبين بلاد اليمن جنوباً وبلاد العراق شمالا ، وزودوا هذه الطرق بالماء ليرتوي الحجاج منه ، وعملوا على التوسيع على أهل مكة فزادوا في أعطياتهم وأغدقوا عليهم الصلات والمنح .

زاد الخليفة العباسي الثاني المنصور في المسجد الحرام ، وجعل فيه أعمدة الرخام . كما أمر الخليفة الثالث المهدي بالزيادة في المسجد الحرام ، فدخلت فيه دور كثيرة ، وتولى أمر ذلك يقطين بن موسى ، واستمر البناء حتى

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٩٨ .

وفاة المهدي(١). وعهد المهدي الى يقطين بتوفير المياه في الطرق الموصلة الى مكة. ونزع المهدي كسوة الكعبة التي كانت عليها ، وكساها كسوة جديدة ، ويروي الطبري أن حجبة الكعبة فيما ذكر رفعوا اليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة ، فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجردة ، ثم طلي البيت كله بالخلوق ، وذكر أنهم لما بلغوا كسوة هشام وجدوها ديباجاً ثخيناً جداً ، ووجدوا كسوة من كان قبله عامتها من متاع اليمن » .

وكانت مواكب الحج من أعظم مواكب الخلفاء العباسيين ، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الامصار الاسلامية الشرقية ، وخاصة أهل العراق وفارس وخراسان وغيرها . وقد أعدوا عدتهم من الابل والكسى والطعام . ويتقدم الموكب هوادج تعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب ، يقيم في احداها أمير الحج .

واهتم الخليفة العباسي هارون الرشيد بالكعبة والحج ، فكان يحج سنة ، ويغزو سنة ، وكان اذا حج يحج ماشياً ، ويتولى الانفاق على عدد كبير من الحجاج .

ويذكر المؤرخون أن الرشيد سأل الامام مالك في هدم الكعبة وزيادتها الى بناء عبدالله بن الزبير ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين ، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد أن يهدمها الا هدمها . فترك الرشيد الكعبة كما هي .

وبقيت الكعبة على بناء الحجاج بن يوسف ، وكان المسلمون يدعمون البناء كلما اعتراه الوهن ، حتى كانت العمارة التي تغير فيها سقفها في زمن

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٦٦ .

السلطان سليمان سنة ٩٦٠ هـ ، ثم العمارة الترميمية التي حدثت في عهد السلطان أحمد سنة ١٠٢١ هـ .

ولما تولى الخليفة العباسي الأمين ، بعد وفاة أبيه الرشيد ، علم أن الذهب الذي حلى به الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك قد دق ، فبعث أحد عماله ، وأعطاه ثمانية عشر ألف دينار ليضربها صفائح على باب الكعبة . وخلع هذا العامل ما كان على الباب من الصفائح وزاد عليها دنانير الأمين ، وضرب الصفائح والمسامير وحلقتي الباب والقبة ، وأصبح ما على الكعبة من الذهب ثلاثة وثلاثين ألف مثقال(١) .

اعادة بناء الكعبة في العصر العثماني :

حينما تولى السلطان سليمان العثماني (سنة ٩٦٠ هـ) غير سقف الكعبة ، كما اهتم السلطان أحمد (١٠٢١ هـ) بترميم الكعبة . حتى اذا كانت سنة ١٠٣٩ هـ شهدت مكة سيولا استمرت يومين ، ودخلت مياهها الى المسجد الحرام والكعبة ، حتى اذا انحسر الماء ضعفت جدران الكعبة ، وخاصة الجدار الشمالي والشرقي والغربي . وأمر أمير مكة باخراج القناديل الذهبية العشرين ، وتقدم مع أهل مكة ينظفون الكعبة من الأحجار المتساقطة ، واحتاروا فيما يفعلون ، ورأوا الرجوع الى السلطان العثماني .

تألم المسلمون في أرجاء العالم الاسلامي مما أصاب الكعبة ، ولم ينتظر والي مصر محمد باشا الألباني ما يشير به السلطان العثماني مراد الرابع ، حتى لا يستفحل تصدع الكعبة ، ولاقتراب موسم الحج ، فبعث بمندوبين عنه الى مكة .

وعادت السيول مرة أخرى ، مما أدى الى ازدياد تصدع الجدار الغربي ، ولذا استقر الرأي على هدم ما بقي من جوانب الكعبة ، ولم يقع خلاف الا

---

(١) العمري : مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٩ .

على ركن الحجر الأسود . ولكن المهندسين رأوا أن هذا الركن يوشك أن ينقض كذلك ، ولذا كف القوم عن التردد ، ورأوا هدم البيت كله ، ليقيموا بناءه ثانياً قوياً .

قام بعمارة البيت جماعة من المهندسين والعمال المصريين ، واستمر البناء ستة أشهر من عام ١٠٤٠ ﻫ ، وانفقوا في سبيل ذلك أموالا كثيرة ، ولم يكونوا يعيدون من الأحجار التي بنى بها ابن الزبير الكعبة الا ما وجدوه ما يزال صلباً قوياً . أما ما وهن أو ضعف فكانوا يستبدلون به غيره .

ثم جاء دور اعادة الحجر الأسود الى مكانه ، وكان هذا الحجر قد أصابه بعض التصدع في عهد ابن الزبير ، فعالجوه اذ ذاك بتقويته بسيور من الفضة.
ولما تم اعادة بناء الكعبة ، كتبوا بذلك محضراً أرسلوه الى مصر ، فيه شهادة المكيين بحسن عمارة الكعبة ، وفي ذلك اعتراف بما كان لمصر من مجهود في هذه العمارة فاق كل مجهود قامت به أية أمة اسلامية أخرى ، فقد أرسلت مصر جميع ما يلزم لهذه العمارة وانفقت ستة عشر ألفاً من الجنيهات (١) .

وفي سنة ١٢٧٣ ﻫ أرسل السلطان العثماني عبد المجيد الى الكعبة ميزاباً من الذهب وهو الموجود بها الآن .

* * *

(١) المجرمي : كتاب الحج ص ٣٤ .

١٧ ـ كسوة الكعبة على مر العصور

أول كسوة :

كان أول من كسا الكعبة هو (تبع أبو كرب أسعد) الملك العربي اليمني الحميري ويروي العمري(١) ان تبعاً رأى في نومه أنه يكسو الكعبة ، ولذا حين مر بمكة راجعاً من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة ، حقق رؤياه ، وكسا الكعبة وجعل لها باباً ومفتاحاً . ويذكر العمري أنه بدأ يكسوها بالمسوح والأنطاع ، ثم خشي أن يؤثر ذلك في بناء الكعبة ، فكساها « الملاء والوصائل » ، وهي ثياب موصلة من ثياب اليمن ، وأنشد تبع حين كسا الكعبة :

وكسونا البيت الذي حرّم الله ه ملاء معضداً وبــرودا
فأقمنا من الشهر عــــشراً وجعلنا لبابــه اقليــدا
ونحرنا بالشعب ستة ألــف فترى الناس نحرهن ورودا
ثم سرنا عنـه نؤم سهيــلا فرفعنا لواءنا معقــودا

وتبعه خلفاؤه ، فكانوا يكسونها بالجلد والقباطي (وهو قماش مصري) زمناً طويلا ، ثم أخذ الناس يقدمون اليها هدايا من الكساوى المختلفة ، فيلبسونها على بعضها ، فكان اذا بلي ثوب وضع عليه ثوب آخر ، حتّى جاء قصي بن كلاب فوضع على القبائل مبلغاً من المــال

(١) مسالك الابصار ج ١ ص ١٠١ .

لكسوتها سنوياً ، واستمر أبناؤه بعده ، على هذا التقليد . وكان أبو ربيعة ابن المغيرة قبل الاسلام يكسوها سنة ، وقبائل قريش تكسوها أخرى ، فسمي بذلك العدل ، لعدله بين قبائل قريش في كسوة الكعبة(١) .

وروى العمري(٢) أن خالد بن جعفر بن كلاب كان أول من كسا الكعبة بالديباج . وممن كسوها بالديباج أيضاً نتيلة بنت جناب ، أم العباس ابن عبد المطلب وكان العباس قد ضل الطريق وهو صغير ، فنذرت أمه ان وجدته أن تكسو الكعبة بالديباج .

كسوة الرسول والخلفاء :

روى ابن هشام (٣) ان الكعبة في عهــد الرسول كانت تكسى بالقباطي ، وهي ثياب بيض كانت تصنع في مصر ، ثم كسيت بالبرود وهي ضرب من ثياب اليمن .

ثم قام بكسوة الكعبة كل من عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبدالله بن الزبير . وكساها معاوية بن أبي سفيان بالديباج مرتين في يوم عاشوراء . ثم كساها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان .

وجرت عادة الخلفاء الأمويين على وضع الكسوة الجديدة فوق الأكسية القديمة حتى اذا تولى الخليفة العباسي المهدي ، شكا اليه سدنة الكعبة ، اذ خشوا أن يؤثر تكاثر الأكسية في بناء الكعبة ، فأمر المهدي برفع الأكسية القديمة ، وابدلها بكسوة جديدة كل سنة ، وأصبحت سنّة تتبع طوال العصور التالية .

---

(١) الهجرسي : كتاب الحج ص ٣٩ .
(٢) مسالك الابصار ج ١ ص ٩٩ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١١ .

وقام الخليفة العباسي المأمون بكسوة الكعبة ثلاث مرات ، فكان يكسوها الديباج الأحمر يوم التروية والقباطي يوم هلال رجب والديباج الابيض يوم سبع وعشرين من رمضان (١) .

وكان سائر الخلفاء العباسيين يكسون الكعبة عادة بالحرير الأسود ، حتى اذا ضعفت الدولة العباسية صار يكسو الكعبة تارة حكام مصر وتارة أخرى حكام اليمن ، ثم انفرد حكام مصر بكسوة الكعبة .

الكسوة المصرية للكعبة :

أمر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، بعد فتحه مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) بعمل كسوة للكعبة ، لينافس خلفاء بغداد العباسيين ، وكانت هذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر ، وسعتها مائة وأربعة وأربعون شبراً ، وكان في حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبياً ، في كل هلال أترجة ذهبية ، وفي كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبر ، كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق . وقد نقش في حافتها الآيات التي وردت في الحج ، والآية ٩٥ من سورة آل عمران ، والآية ٣ من سورة براءة ، بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة ، وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك(٢).

تحدث العمري (٣) عن كسوة الكعبة كما شاهدها عياناً فقال : « وهي الآن تكسى في العام مرة واحدة في وقت الموسم ، وتحمل الى الكعبة من الخزانة السلطانية بالديار المصرية ، صحبة الركب فيتولى ذلك أمراء الركب . ويحضرون بأنفسهم فتكسى ويأخذ الاشراف وبنو شيبة الكسوة العتيقة ويقتسمونها ، ويأخذون في كل قطعة منها أوفر الأعواض ،

---

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٠ .
(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ .
(٣) مسالك الابصار جـ ١ ص ١٠٠ .

وتحمل الى سائر البلاد للبركة ... ولما حججت سنة ثمـــان وثلاثين وسبعمائة ، صعدت أنا وأمراء الركب المصري لتلبيس الكعبة الشريفة ، حتى كنا على سطحها ، فرأيته مبلطاً بالمرمر والرخام الأبيض ، و من جوانبه جدر فصار فيها حلق لمرابط الستور ، تجر فيها الكسوة بحبال ثم تربط في تلك الحلق » .

ووصف الرحالة ابن بطوطة (١) كسوة الكعبة فقال : وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري الى البيت الكريم فوضعت في سطحه . فلما كان اليوم الثالث بعد النحر أخذ الشيبيون في اسبالها على الكعبة الشريفة . وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان ، وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً) . الآية . وفي سائر جهاتها طرز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائح مشرق من سوادها . ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدي الناس ، والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة ، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والمؤذنين والفراشين والقومة ، وما يحتاج اليه الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة » .

وطوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كانت مصر ترسل الكسوة للكعبة سنوياً ، وتتألف من ثماني ستائر من الحرير الأسود ، وقد كتب عليه بالنسيج في كل مكان منه (لا اله الا الله محمد رسول الله) وطول الستارة نحو ١٥ متراً ومتوسط عرضها خمسة أمتار وعدة سنتيمترات وكل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة فتربطان من أعلاهـــا حلقات من الحديد ، ثم تربطان احداها بالأخرى بعرى وأزرار ، فاذا انتهى تشبيكها كلها صارت كالقميص المربع الأسود .

(١) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٣١ .

ثم يوضع على محيط الكعبة فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الأعلى حزام يسمى رتكاً مركب من أربع قطع مصنوعة من المخيش المذهب مكتوب فيه بالخط الجميل آيات قرآنية . ومكتوب على هذا الحزام من الجهة التي فيها باب الكعبة (بسم الله الرحمن الرحيم . واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العظيم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم) .

ومكتوب في الجهة التي تليها من جهة الحجر الأسود (بسم الله الرحمن الرحيم . قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام براهيم) ، (بسم الله الرحمن الرحيم . واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق)

ومكتوب في الجهة المقابلة للمقام المالكي : (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) .

وكانت الكسوة تصنع في مصر سنوياً بدار فسيحة في حي الخرنفش بالقاهرة وكانت ميزانية هذه الدور في مطلع القرن العشرين حوالي ٤٥٥٠ جنيهاً .

ويتبع هذه الكسوة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها البرقع ، وستارة باب منبر الحرم الشريف ، وهي من الأطلس المصنوع بالمخيش الذهبي والفضي .

وحينما كانت تصل الكسوة من مصر الى مكة تسلم للشيبي القائم بسدانة الكعبة باشهاد شرعي يحضره الكبراء والعلماء فتبقى في منزله الى صباح يوم عيد النحر ، فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد انزال الكسوة القديمة ، ويكون المسجد خلوا من الناس لأن معظمهم يكون بمنياً ، ولا يبقى في مكة منهم الا نفر قليل .

أما الكسوة القديمة ، فيرسل المقصب منها الى شريف مكة ، أما غير المقصب فيأخذه الشيبي فيبيعه للحجاج للتبرك (١) .

المحمل المصري :

وما دمنا نعرض لكسوة الكعبة ، لا بد أن نعرض للمحمل الذي كان يحمل الكسوة الى الكعبة بمكة ، ويبدأ تاريخ المحمل الى حوالي سنة ٦٤٥ هـ . فقد رحلت شجرة الدر ، زوجة السلطان الايوبي الاخير الصالح أيوب ، الى مكة لاداء فريضة الحج ، فركبت هودجاً ، واحتفل بسفرها احتفالا شائقاً ، وأصبح ذلك سنة متبعة سنوياً . وحذت بعض الأقطار الاسلامية حذو مصر ، فكانت تبعث محملا مشابهاً في موسم الحج ، حتى توقفت هذه العادة أخيراً اكتفاء بارسال الكسوة الى الكعبة .

اهتم الفاطميون بالمحمل ، وبلغت نفقاته أكثر من مائتي ألف دينار ، واستمر الاهتمام به في عصر المماليك ، وكانت وظيفة أمير الحج في المرتبة الثالثة من مراتب الدولة ، وكان صاحبها مرشحاً لأن يكون حاكماً للقاهرة ، وهو المنصب الذي يلي منصب السلطان المملوكي مباشرة . وقد بلغ من اكبار ملوك دولة المماليك للمحمل أنهم أمروا جميع حكام البلاد التي كان يمر عليها في طريقه بأن يقبلوا خف جمل المحمل عند استقباله واستمر أمراء مكة يقبلونه حتى أعفاهم من ذلك السلطان جقمق في سنة ٨٤٣ هـ .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٨ ص ١٥٠ .

وفي القرن التاسع عشر ، كانت القاهرة تحتفل بخروج المحمل . فيسير الجمل الحامل للهودج ، وحوله وأمامه الجنود الراكبة والراجلة ، حتى ينتهي الموكب الى ميدان القلعة ، حيث يحتشد وجوه القوم . وتطلق المدافع تحية للمحمل ، ثم يتابع الموكب سيره الى العباسية ، حيث يتفرق الناس وينزل ركب المحمل الى خيامهم في فضاء بالعباسية ، وينصب المحمل في وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به . ثم يرحل المحمل من العباسية الى السويس على قطار خاص ، ومنها بحراً الى جده ، ثم الى مكة .

وعند عودة المحمل كانت الحكومة المصرية تحتفل به رسمياً ، ويسير الموكب من العباسية الى القلعة ، وتطلق المدافع . وتحفظ كسوة المحمل بمخزن وزارة المالية . وكانت تبلغ نفقات المحمل في مطلع القرن العشرين نحو ٥٠ ألفاً من الجنيهات المصرية .

وكان من ضمن وظائف المحمل وظيفة اسمها أمين الكساوى والحلوى ، ويقوم بتوزيع الحلوى والكساوى التي كانت ترسل الى أهل مكة ، ثم استعيض عنها بأثمانها . وكان يخرج معه موظف يسمى (مأمور الذخيرة) في عهدته كميات كبيرة من (البقصمات) ليسد الحاجة إذا قلت الاقوات بمكة . وكان للمحمل عشرون جملا تحفظ في مكان خاص ببولاق ويتولى شراءها موظف يدعى (شيخ الجمل) (١) .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج ٨ ص ١٥٢ .

١٨ ـ وصف الكعبة

وصف العمري للكعبة :

وصف العمري الكعبة في كتابه (مسالك الابصار في ممالك الامصار) ، كما رآها حينما أدى فريضة الحج سنة ٧٣٨ هـ ، فقال « فاعلم أن الكعبة ، البيت الحرام مربعة البنيان في وسط المسجد . ارتفاعها من الأرض سبعة وعشرون ذراعاً ، وعرض الجدار ، وجهتها الآن ، أربعة وعشرون ذراعاً ، وهو الذي فيه بابها ، وعرض مؤخرها مثل ذلك ، وعرض جدارها الذي يلي اليمين ، وهو فيما بين الركن اليماني والركن العراقي ، وهو الذي فيه الحجر الاسود ، عشرون ذراعاً . والى وسط هذا الجدار كان يصلي النبي صلى الله عليه وسلم قبل هجرته الى المدينة . وعرض جدارها الذي يلي الشام ، وهو الذي فيما بين الركن الشامي والركن الغربي ، واحد وعشرون ذراعاً ، وميزاب الكعبة على وسطه يسكب في الحجر . ومن أصل هذا الجدار الى أقصى الجدار ستة عشر ذراعاً .

وعرض باب الحجر الشامي خمسة أذرع الا شيئاً يسيراً ، وعرض بابه الغربي ستة أذرع الا شيئاً يسيراً ، وجدار الحجر مدور من بابه الشامي الى بابه الغربي كالطيلسان ، وعرضه ذراع وارتفاعه من الأرض أربعة أسبار . والحجر الاسود في الركن العراقي المقابل لزمزم وهو على سبعة أشبار من الكعبة . وباب الكعبة على أربعة أذرع من الأرض ، وعلوه ستة أذرع ، وعرضه أربعة أذرع .

وما بين الباب والحجر الاسود أربعة أذرع ، ويسمى هـذا الموضع الملتزم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين فرغ من طوافه التزمه ودعا فيه ، ثم التفت فرأى عمر فقال : ها هنا تسكب العبرات . ومن الباب الى مصلى آدم عليه السلام حين فرغ من طوافه وأنزل الله التوبة وهو موضع الخلوق ، ومن ازار الكعبة ، أرجح من سبعة أذرع . وكان هناك موضع مقام ابراهيم ...

وبين موضع الخلوق — وهو مصلى آدم عليه السلام — وبين الركن الشامي ثمانية أذرع ، ومن الركن الشامي الى اللوح المرمر المنقوش في الحجر الذي بنى هناك ابن الزبير ركن ابراهيم ، وهو على قواعد ابراهيم عليه السلام ، تسعة أذرع .

وفيما بين الحجر الى مقام ابراهيم خمسة وعشرون ذراعاً ، ويسمى ذلك الحطيم ، لأنه يحطم الذنوب أي يسقطها ... وفيما بين الركن العراقي —وهو الذي فيه الحجر الاسود — الى مصلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل هجرته الى المدينة ، عشرة أذرع ... وبين الركن اليماني وبين الباب المسدود في ظهر الكعبة أربعة أذرع . ويسمى ذلك الموضع المستجار من الذنوب . وعرض الباب خمسة أذرع ، وارتفاعه سبعة أذرع . وبينه وبين الركن الغربي ثلاثة عشر ذراعاً ، وبين الركن الغربي وآخر قواعد ابراهيم — وهناك اللوح المرمر المنقوش — أزيد من سبعة أذرع والى هناك بنى ابن الزبير(١) .

وصف ابن بطوطة للكعبة :

كان مولد الرحالة ابن بطوطة في سنة ١٣٠٤ م وتوفي سنة ١٣٧٧ م وقد زار مكة خلال رحلته الاولى (١٣٢٥ — ١٣٤٩ م) . ووصف الكعبة كما

(١) مسالك الابصار ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٤ .

شاهدها ، فقال : « والكعبة ماثلة في وسط المسجد ، وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعاً ، من الجهة الرابعة ، التي بين الحجر الاسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعاً ، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الحجر الاسود أربعة وخمسون شبراً ، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليمـــاني الى الركن الشامي . وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الركن الشامي من داخـــل الحجر ثمانية وأربعون شبراً ، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي الى الركن العراقي . وأما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبراً والطواف انمـــا خارج الحجر .

وبناؤها بالحجارة الصم السمر ، وقد الصقت بأبدع الالصاق وأحكمه وأشده ، فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان . وباب الكعبة المعظمة في الصفح(١) الذي بين الحجر الاسود والركن العراقي ، وبينه وبين الحجر الاسود عشرة أشبار . وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء . وارتفاع الباب عن الارض أحد عشر شبراً ونصف شبر ، وسعته ثمانيـة أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبراً ، وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار وهو مسطح بصفائح الفضة ، بديع الصنعة ، وعضادتها وعتبته العليا مصفحات بالفضة . ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة ، ويفتح في يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ....

وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك ، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج ، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطى . وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة ،

---

(١) الصفح : الجهة .

يقابل الاوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين العراقي والشامي .

وستور الكعبة الشريفة من الحرير الاسود مكتوب فيها بالابيض ، وهي تتلألأ عليها نوراً واشراقاً ، وتكسو جميعها من الاعلى الى الأرض .

ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها الا الله الذي خلقهم ورزقهم ، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم . ومن عجائبها أنها لا تخلو من طائف أبداً ليلا ولا نهاراً ، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف ، ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران ، وتجد الحمام يطير الى أعلى الحرم كله ، فاذا الكعبة الشريفة عرج عنها الى احدى الجهات ولم يعلها»(١).

وصف الكعبة :

شكل الكعبة مربع تقريباً ، مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة ، ويبلغ ارتفاعها ١٥ متراً وطول ضلعها الذي فيه الميزاب والذي قبالته ١٠ أمتار و ١٠ سنتيمترات ، وطول الضلع الذي فيه الباب والذي يقابله اثنا عشر متراً ، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد اليها بسلم كسلالم المنابر . وسلمها الحالي من الخشب المصفح بالفضة أهداه الى الكعبة أحد أمراء الهند ، وهو لا يوضع في مكانه منها الا اذا فتح للزائرين وفي الاحتفالات الكبرى وهي لا تزيد عن خمس عشرة مرة في السنة .

وفي الركن الذي على يسار باب الكعبة الحجر الاسود ، على ارتفاع متر وخمسين سنتيمتراً من أرض المطاف .

---

(١) أنظر رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٠٥ – ١٠٦ .

يسمي العرب زوايا الكعبة بالاركان على حسب اتجاهاتها ، فيسمى الشمالي بالركن العراقي ، والغربي بالشامي ، والقبلي باليماني ، والشرقي بالاسود لان فيه الحجر الاسود ، وهو حجر صقيل بيضي الشكل غير منتظم ، لونه أسود ضارب الى الحمرة ، وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ، وهي أثر لحام القطع التي كانت تكسرت منه ، قطره ، نحو ٣٠ سنتيمتراً يحيط به اطار من الفضة عرضه ١٠ سنتيمترات . والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وهو ما يلتزمه الطائف ، في دعائه واستغاثته .

ويخرج من منتصف الحائط الشمالي الغربي من أعلاه الميزاب ، ويقال له ميزاب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطحها ، فغيره السلطان سليمان سنة ٩٥٩ باخر من الفضة ، وأبدله السلطان أحمد سنة ١٠٢١ بآخر من الفضة المنقوشة بالميناء الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية . وفي سنة ١٢٧٣ أرسل اليها السلطان عبد المجيد ميزاباً من الذهب وهو الموجود بها الآن .

وقبالة الميزاب يوجد الحطيم ، وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتي البيت الشمالية والغربية ، ويبعدان عنهما بمترين وثلاثة سنتيمترات ، ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه متراً ونصف متر ، وهو مبطن بالرخام المنقوش وفي محيطه من أعلاه كتابة محفورة . والمسافة بين منتصف هذا القوس من داخله الى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سنتيمتراً . والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت يسمونه حجرة اسماعيل ، وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في الكعبة في بناء ابراهيم . ويقال ان هاجر واسماعيل مدفونان به .

أما شكل الكعبة من الداخل ، فمربع مشطور الزاوية الشمالية وبهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة يوصل الى سلم صغير يصعد به الى

سطحها . وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من خشب العود عليها مقاصير وترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الاسود من جهة أخرى . وهذه الاعمدة موجودة من عهد عبد الله بن الزبير وهي غالية القيمة جداً . ويغطي سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردي عليها مربعات مكتوب فيها (الله جل جلاله) . وفي قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلي فيه النبي صلى الله عليه وسلم . ويحيط ببناء البيت من الداخل هامش من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين .

وداخل البيت الواح محفور فيها أسماء من أحدثوا به شيئاً من العمارة . وبجانب الباب على يسار الداخل خوان من الخشب مغطى بالحرير الاخضر موضوع عليه كيس مفاتيح الكعبة وهو من الاطلس الأخضر المزركش بأسلاك الفضة .

تفتح الكعبة في العاشر من المحرم للرجال ، وفي ليلة الحادي عشر منه للنساء . وفي ليلة الثاني عشر من ربيع الأول . وتفتح في العشرين من المحرم لتغسل . وفي أول جمعة من رجب للرجال ، وفي مسائه للنساء ، وفي ليلة النصف من شعبان . وفي يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال وفي تاليه للنساء . وفي آخر جمعة من رمضان ايضاً ، وفي نصف ذي القعدة للرجال وفي تاليه للنساء ، وفي ٢٠ منه لغسلها ، وفي الثامن والعشرين منه لاحرامها ، أي باحاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرض المطاف . وتفتح في موسم الحج لمن يزورها من الحجاج ، وتفتح أيضاً في نحو العشرين من ذي الحجة لغسلها .

ولغسل الكعبة احتفال عظيم ، يحضره كبار الشخصيات والحجاج ، فيدخل شريف مكة فيصلي ركعتين ، ثم يؤتى بدلاء من ماء زمزم فيغسل أرضها بمكانس صغيرة من الخوص ، ويسيل الماء من ثقب في عتبتها ،

ثم يغسلها بماء الورد ، ثم يضمخ أرضها وحوائطها على ارتفاع الايدي بأنواع الادهان العطرية ، وفي أثناء ذلك يكون البخور متصاعداً فيها . ثم يقف الشريف على الباب ويلقي على الحاضرين المكانس التي استخدمها في غسل الكعبة ، فيتهالك الواقفون عليها ، فمن حصل على واحدة عدها من الذخائر التي لا تقدر بمال (١) .

* * *

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج ٨ ص ١٤٦ .

مصادر البحث

القرآن الكريم

ابن الاثير : الكامل في التاريخ (بولاق ١٢٧٤هـ)

أحمد أمين : فجر الاسلام (الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٥٧) .

أرنولد : (توماس و.) الدعوة الى الاسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخرين (القاهرة ١٩٥٧) .

أرفنج : (وشنجتون) حياة محمد ، ترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي .

الأزرقي : أخبار مكة وما جاء منها من الآثار (مكة سنة ١٣٥٢ هـ) .

الاصفهاني : كتاب الاغاني (مطبعة التقدم ، القاهرة ١٢٢٣ هـ) .

الالوسي : السيد محمود شكري .
بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب (بغداد ١٣١٤ هـ) .

أوليري : دي ليسي — O'Leary : De Lacy
Arabia before Muhamad ; (London, 1927)

براون : ادوارد ج . — Edward, G.
Literary History of Persia, (London, 1905)

ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار ، في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) (المطبعة الاميرية ، بولاق ، القاهرة ١٩٣٩) .

البلاذري : فتوح البلدان (القاهرة ١٣١٨ هـ) .

جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام .

جورجي زيدان: العرب قبل الاسلام (القاهرة ١٩٠٨ م) .
: تاريخ التمدن الاسلامي (القاهرة ١٩٥٨ م) .

جويدي : Guidi :
L'Arabie Anteislamique, (Paris, 1921).

حتي : فيليب.
: تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع (دار العالم العربي القاهرة)

ابن حزم : الفصل في الملك والاهواء والنحل (المطبعة الادبية ١٣١٧ هـ)

حسن ابراهيم حسن: الدكتور
تاريخ الاسلام ، الجزء الاول (القاهرة ١٩٥٧) .

حسني : (س . أ . ق.)
الادارة العربية، ترجمة الدكتور ابراهيم أحمد العدوي (سلسلة ألف كتاب ، القاهرة) .

الخضري : محمد .
تاريخ الامم الاسلامية (مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٣٧٦ هـ)

خودا بخش : الحضارة الاسلامية ، ترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي . دائرة معارف القرن العشرين (القاهرة ١٩٦٠).

دينيه : (اتين) بالاشتراك مع سليمان ابراهيم الجزائري .
محمد رسول الله ، ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود (القاهرة ١٩٥٩) .

ابن عبد ربه : العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة)

ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير (طبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية بالقاهرة) .

سيديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر (دار احياء الكتب العربية) القاهرة ١٩٤٨ .

شكري فيصل: الدكتور
المجتمعات الاسلامية في القرن الاول (القاهرة ١٩٥٢) .

الشيباني : تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول ، (القاهرة ١٣٤٦ هـ) .
الطبري : تاريخ الامم والملوك (القاهرة ١٩٣٩) .
ابن طباطبا : الفخري بالآداب السلطانية (القاهرة) .
علي حسني الخربوطلي : الدكتور
عبد المطلب جد الرسول (دار المعارف ، القاهرة)
المختار الثقفي (سلسلة أعلام العرب ، القاهرة)
عبد الله بن الزبير (سلسلة أعلام العرب ، القاهرة) .
الدولة العربية الاسلامية (القاهرة ١٩٦٠) .
العبادي : (عبد الحميد) صور من التاريخ الاسلامي (طبعة الاسكندرية)
عباس محمود العقاد : ابراهيم أبو الأنبياء (طبعة دار أخبار اليوم) .
ابن عساكر : البداية والنهاية (مطبعة السعادة بالقاهرة) .
عمر أبو النصر : الحضارة الأموية (بيروت ١٩٤٨) .
العمري : مسالك الابصار في الممالك والامصار (دار الكتب المصرية ١٩٢٤)
ابن قتيبة : المعارف (المطبعة الاسلامية ١٩٣٥) .
الامامة والسياسة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة ١٩١٧) .
ابن كثير : البداية والنهاية (مطبعة السعادة بالقاهرة) .
كرد علي : (محمد) .
الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول (القاهرة ١٣٤٩هـ)
الجزء الثاني (القاهرة ١٣٥٤ هـ) .
الكلبي : كتاب الاصنام (دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م) .
لطفي جمعة : ثورة الاسلام وبطل الانبياء (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة)
محمد جمال الدين سرور : (الدكتور)
قيام الدولة العربية الاسلامية (دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٦) .

محمد حسين هيكل : (الدكتور)
حياة محمد (طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة) .
محمد عزة دروزه : عصر النبي عليه السلام وبيئته .
محمود المجرسي : كتاب الحج (طبعة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية) .
المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر (طبعة دار الرجاء بالقاهرة)
المقريزي : امتاع الاسماع بما للرسول من الانباء والاموال والحفدة والمتاع (القاهرة ١٩٤١) .
مولاي محمد علي: محمد رسول الله، ترجمة مصطفى فهمي (القاهرة ١٩٤٥) .
Muir : (Sir W.T.) : ميور
The Life of Mohammed, (Edinburgh, 1923).
ابن هشام : السيرة النبوية (القاهرة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م)
هل : (جوزيف) .
الحضارة العربية ، ترجمة الدكتور ابراهيم العدوي (سلسلة الالف كتاب ، القاهرة) .
ياقوت الحموي : معجم البلدان (مطبعة السعادة ١٩٠٦) .
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (النجف ١٣٥٨ هـ)

* * *



تاريخ الكعبة

هذا الكتاب دراسة علمية منهجية لتاريخ الكعبة منذ قيام النبي ابراهيم ببنائها ، ودعوته الى الحج اليها . ويدرس الكتاب نكسة الوثنية حتى ظهرت دعوة الحنيفية ثانية قبيل الاسلام .

ويتحدث الكتاب عن دور الكعبة في حيـاة الرسول وفي الدعوة الاسلامية ، وتاريخ الحج الى الكعبة ، واتخاذها قبلة للصلاة . ويبرز الكتاب اهتمام الدول الاســلامية بالكعبة ، وعمليات التجديد والاصلاح . كما يقدم الكتاب دراسة فريدة لكسوة الكعبة عبر العصور التاريخية ، ويقدم أيضـاً صورة وصفية تفصيلية للكعبة المشرفة .

والكتاب موسوعة تاريخية كاملة ، فهو يسلط الاضواء على كثير من الحقائق الهامـة ، ويحتوي على معلومـات فريدة ، ويناقش قضايا تاريخية بارزة . ويتصف الكتاب بالفائدة العلمية ، وبجاذبية القراءة ، ويحقق بغية كل مسـلم .

الناشر